هاني القنطار

حدث في مثل هذا اليوم

رواية

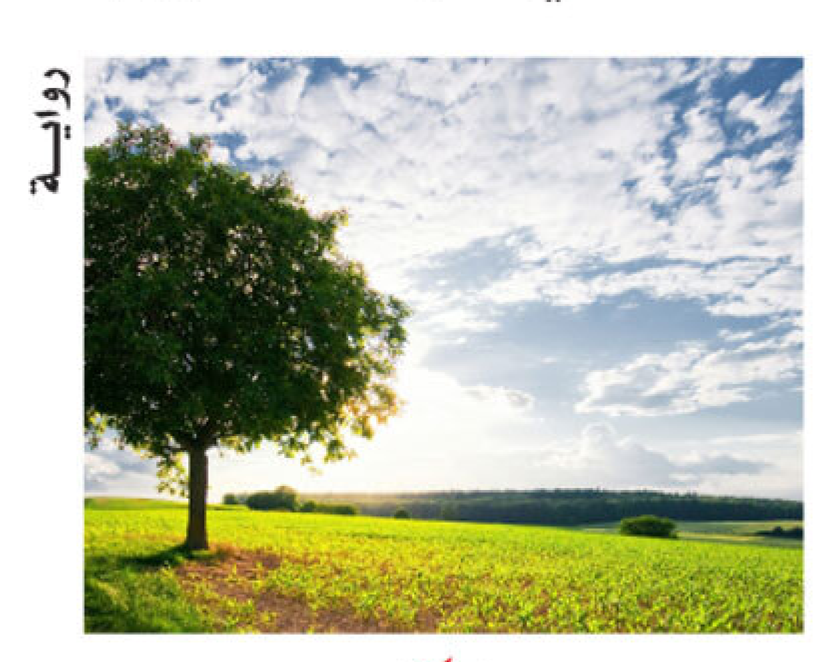


هاني القنطار



حدث في مثل هذا اليوم

رواية





حدث في مثل هذا اليوم

روايـــة

دار الفارابي

هاني القنطار

الكتاب: حدث في مثل هذا اليوم
المؤلف: هاني القنطار
الغلاف: فارس غصوب
الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com
الطبعة الأولى: تشرين الأول 2013
ISBN: 978-614-432-062-4

الإهداء

إلى روح والدي: سلمان القنطار

-1-

بدأ موظف المطار يتفحص جواز السفر بدهشة وريبة، نظر إلى أيوب بعينين يملأهما الفضول كمن يحاول معرفة سر ما، لكنه فضل التزام الصمت واكتفى بأن طلب منه الوقوف جانباً كي لا يعيق حركة المسافرين الذين اصطفوا وراءه، ثم راح يتكلم عبر جهاز اتصال كان قد وضعه قرب جهاز الكومبيوتر الذي يعمل عليه.

لم يعرف أيوب ماذا يفعل في تلك اللحظة، وبقي أسير حيرته، لكنه سرعان ما خرج من ذهوله فاقترب من الموظف وسأله:

- ما المشكلة يا سيدي؟؟

- أرجو أن تنتظر قليلاً.

- لكن الطائرة ستقلع بعد قليل !

- لا أعرف ماذا أقول لك ؟! أرجوك عد إلى مكانك.

لاح من بعيد رجل يرتدي لباساً مدنياً يقترب بخطى متسارعة باتجاه الموظف الذي بدأ يعرض أمامه جواز السفر ورقة تلو أخرى.

حمل الرجل جواز السفر واقترب من أيوب.

- السيد أيوب؟

- نعم!!

- جواز سفرك عليه تاريخ دخولك إلى كوراساو.

- هذا صحيح..

- لكنه لا يحمل تأشيرة دخول إلى فنزويلا!

- الحقيقة.. لا أدري كيف سأشرح لك...

قاطعه قائلاً:

- لا تدري؟ ومن يدري إذاً؟

- أقصد.. أن ضيق الوقت لا يسمح بتوضيح التفاصيل كلها، فطائرتي ستقلع بعد قليل.

- ومن قال لك إنك ستسافر؟

- ماذا تعني؟.

- أعني أنك مضطر للبقاء لكي نحقق معك.

- أرجوك يا سيدي أريد أن أعود إلى وطني... أريد أن أعود إليه فحسب.

- لكن القانون يجب أن يأخذ مجراه، أم أنك ترى عكس ذلك؟.. ثم هل جمعت ثروة طائلة لكي تعود بمثل هذه السرعة إلى بلدك ؟

- لا... لم أجمع شيئاً، صدقني.

- غريب أمرك، لم أعرف عربياً واحداً يفعل فعلتك..تكبدت خطر الرحلة من كوراساو إلى هنا، وبعد أقل من سنة سترجع!!! انتظر ولا تتحرك من مكانك، أردف الرجل بلهجة آمرة ومضى.

شعر أيوب أنه تحول إلى ورقة صفراء تطير في الهواء في يوم خريفي بارد، وأن قدميه لا تقودانه إلى الطائرة بل إلى السجن، فأسند كتفه إلى حائط خلفه خشية أن يقع على الأرض.

رجع الرجل ذو اللباس المدني بعد وقت قصير وطلب منه أن يوقّع على بعض الأوراق، فبدأت يد أيوب ترتجف وشحب وجهه وأخذ الخوف يقطع أوصاله بمنشار كهربائي، وحين انتهى من التوقيع وضع الموظف الأوراق تحت إبطه وسأله:

- لا شك أنك تعرف مشكلة زوجتي، أليس كذلك؟

- ماذا...؟؟؟ تمتم أيوب مستغرباً وهو يفكر: يا إلهي! أية مصيبة أخرى وقعت على رأسي!.

- ألا تعرف مشكلتها؟

- الحقيقة يا سيدي أنني لا أعرف؟... وأقسم لك بأني لا أعرف زوجتك أصلاً.. صدقني.

- أنا سأقول لك، زوجتي سمينة جداً والأنكى من ذلك أنها تحب الأنواع الفاخرة من الشوكولا، فما الحل برأيك؟

- الحل...؟ تردد أيوب لوهلة، لكنه تشجع وسأل:

- - هل تسمح لي بشراء علبة شوكولا لزوجتك كهدية؟

- وماذا تنتظر!...

لم يصدق أيوب ما سمعه، فطار فرحاً نحو أقرب متجر في المطار لبيع الحلويات وعاد راكضاً.

أخذ الرجل ذو اللباس المدني منه علبة الشوكولا وأعاد له جواز السفر قائلاً:

- إلحق بطائرتك أيها «التوركو»، رحلة سعيدة.

-2-

لقد أيقن أخيراً رغم المحاولات العديدة بأنهم لا يفهمون لغته فأخذ يرسم بيديه طريقاً ليعبروه فعبروا مطار كوراساو، ورسم بيديه شقة سكنية فنزلوا فيها، كانت في الطابق الخامس مؤلفة من غرفتين وصالة وشرفة تطل على البحر لكن كل شيء فيها كان قديماً ووسخاً ومهملاً. استقبلهم صاحبها العربي الذي تلوح على وجهه سمات الشك وعدم الثقة بالآخرين بابتسامة فضحت لون أسنانه الصفراء، وقبل أن يرد على سلامهم سأل عن النقود، فأعطاه كل واحد منهم، وكانوا ثلاثة، ألف دولار، حينئذ قال:

- أشكر الله على وصولكم بالسلامة. ستنامون اليوم عندي وغداً سيرافقكم خوسيه إلى الميناء لتبحروا معه إلى فنزويلا. ولم يكد العربي ينهي حديثه بعد حتى سارع خوسيه يرسم بيديه غرفته وسريره وكلمات عرفوا أنها تقول: غداً يوم جديد.

لم يستطع أيوب أن ينام تلك الليلة، فقد تزاحمت في رأسه أسئلة شتى تفتش عن أجوبة لها. اتجه نحو الشرفة، فوجد العربي واقفاً يتأمل الأضواء التي امتدت حوله بلا حدود، وينصت للصوت الرتيب الذي يصدره البحر.

وقف إلى جانبه دون أن ينبس ببنت شفة، أخرج العربي من جيب قميصه علبة سجائر وعرض عليه واحدة.

- كوراساو لا تنام.

- لاحظت ذلك.

- إنها لا تشبه مدننا، قال العربي وهو يشعل سيجارته.

- صحيح.

- هل أنت جائع؟

- لا أدري؟!

وصلا إلى مطعم صغير، استقبلهما نادل ورافقهما إلى طاولة بكرسيين، ثم تولى إحضار ما طلب منه ابن البلد بلغة لم يعرف أيوب منها سوى كلمة نعم.

أخذت عيناه تجولان في المكان فوقعتا على فتاة جالسة إلى طاولة قبالته تغطي قطعتا قماش فقط صدرها ووركها، فجأة قفز من داخله ذلك الرجل الشرقي الذي حمله معه طوال عشرين عاماً وقال له:

- هيا انهض وتعرف إليها بأي طريقة كانت، لا تدعْ هذه الفرصة تفوتك.

لاحظت الفتاة نظرات أيوب الجلفة تتزحلق على جسدها، خمنت أنها تحمل معها غبار القوافل وشموساً حارة وسيرة حياة بدوي قد مل حمارته فرمت له قبلة وغادرت... ربما أشفقت عليه أو

ربما أغراها حرمانه.

فأردف الرجل الشرقي من جديد:

- والآن ؟!!!! لاتقل لي إنك ستظل جالساً هكذا كالأبله.

فجأة صار أيوب يسمع أصواتاً تأتي من بعيد، وتقترب شيئاً فشيئاً فصادر آخر كلماتها:

- .... سترى كثيرات مثلها!! أكمل عشاءك الآن، فغداً سيكون يومك صعباً.

كانت الشمس تُشد مرغمة بحبال خلف البحر لتعطي الليل حقه في لف ثوبه الأسود على الجزيرة، وكان ميناء كوراساو يشبه معرضاً تتنافس فيه القوارب على اختلاف أشكالها لنيل جائزة أجمل وأفضل قارب، لكن كان نصيب المهاجرين الثلاثة أن يبحروا على متن أسوئها.

صافح ابن البلد أيوب وقال له:

- لعنة الإنسان في هجرته... لكن هذا قرارك... وهذه غربتك قد بدأت فابحر لمواجهتها.

أجل أبحر أيوب ورفاقه، وكان الليل قد أرخى ثوبه كاملاً ونثر في السماء نجوماً كأنها اللؤلؤ. كان ضرباً من السحر يلف رحلتهم، لكنه انقطع حين أصبح خوسيه يرسم بيديه طريقاً بحرياً معتماً وشاطئاً مقفراً قد يصلوا إليه ويمكن العكس، ورسم أيضاً دوريات خفر السواحل ورصاصاً منهمراً وموتاً مجانياً ولا ضمان لشيء سوى كل لحظة يعيشونها لذاتها في عرض ذلك البحر الليلكي. حينئذ، شعر أيوب بزحمة خيول في رأسه وقرع طبول غجرية، وأصبح كالذي ينظر ولا يرى، ومن غير أن ينتبه وقع في شرك ذكريات عاهد نفسه مرةً أن ينساها.

-3-

عانت فاطمة، القابلة القانونية الوحيدة في قريته، من نضوب العاطفة تجاه الأطفال واعتبرتهم أبالسة يدبون على الأرض، خصوصاً بعد أن طلقها زوجها بسبب عدم قدرتها على الإنجاب، فأخذ ذلك التناقض المتأجج فيها باستمرار، والذي كان يضرب في قلبها من غير قرار يلون حياتها بألوان باهتة يوماً بعد يوم، ولكن على الرغم من كل ذلك، كان أيوب بالنسبة إليها طفلاً من نوع آخر، فحين تراه تجلده بقبلاتها وتقص عليه الحكاية ذاتها التي حفظها كل أهل مدينته وحفظها هو عن ظهر قلب:

«كان العرق يتصبب من وجه أمك كشلال ماء، وكانت تقول لي والقلق يلف عينيها:

- أسرعي يا فاطمة... ساعديني سألد المقدوني.

فقلت في نفسي: والله إن هذه المرأة بدأت تهذي قبل الأوان، وبينما كنت أحضر الماء الساخن نامت أمك، خلت أنها سوف تموت ووقفت ذاهلة لا أعرف ماذا أفعل، أمسكت رأسها وحركته بقوة، أردت أن أتحدى الزمن وأسرق منه لحظة واحدة لأردها لها...وفجأة أفاقت وهي تصرخ:

- اسحبي النبي أيوب يا فاطمة.... إنني ألده.

أجل... لقد سحبتك بيدي هاتين يا نبينا، يا حبيبنا، يا بركتنا.»

قال والده:

- كل واحدة منهما مجنونة على طريقتها، إن ثقافة أمك العشوائية جعلتها أسيرة أوهام داكنة، لقد كانت بعد أن تنتهي من قراءة كتاب ما تعتقد أنها سوف تلد بطله أو بطلته، وكان خيالها يستحضر حمورابي وأنديرا غاندي والاسكندر المقدوني وانتهى بأن أنجبتك، أما فاطمة فكان من مصلحتها التأكيد على ما وقع، ولِمَ لا، فقد اعتبرته شهادة خبرة منحت لها وبركة من الله حصلت بها بعد صبر وشقاء...لا تصدق يا بني جنونهما وأوهامهما فأنت طفل عادي مثل كل الأطفال ولست نبياً.

أجل.... لقد أسقط والده وأهل قريته النبوءة عنه وأبقوا على اسمه فقط، لكنه لم يدر لماذا احتواه صبر أيوب وأقام بينه وبين جلده شريكاً أصيلاً.

كان أيوب في العاشرة من عمره عندما توفيت فاطمة فبكاها أهل قريته، وبعد أربع سنوات توفيت أمه فبكاها أهل مدينته أيضاً، وصام والده عن الطعام ثلاثة أيام كاملة. حينئذ شعر أيوب أن العيش المتوازن بالنسبة إليه في هذه الحياة قد يبدو مستحيلاً فصار يخترع التعايش.

-4-

حين وصلوا إلى شاطئ صحراوي أشار خوسيه بيده أن يلتزموا الصمت والحذر وأن يظلوا يسيرون وراءه حتى إشعار آخر؛ كان الخوف يجلدهم بهراوات من حديد ويسرق منهم ما تبقى في رؤوسهم من رواسب للمنطق والإدراك والواقعية... لقد صاروا يرون البحر كأنه عفريت أزرق اللون يحاول أن يقض مضجعهم في كل فرصة تسنح له، وأشجار جوز الهند المسافرة إلى السماء والمتشابكة بعضها ببعض على طول الشاطئ كأنها خيوط لعنكبوت يتأهب لاصطيادهم. فجأة تراءت لهم من البعيد سيارة مركونة ومهملة، اعتقدوا أنها سيارة بوليس وأن فنانهم خوسيه الذي يسيرون وراءه مثل دجاج مسالم تحول إلى حفار قبور يدفعهم نحو حتفهم ليتقاضى أجره، وعندما اقتربوا أكثر، رأوا باب السيارة الجانبي ينفتح، وسمعوا خوسيه يصرخ بهم آمراً بأن يقفزوا في الحال إلى داخلها.

لم يعرفوا ما الذي حدث وكيف أقلعت السيارة بشكل جنوني، لكنهم نسوا تعبهم وخوفهم، وسرعان ما أخذوا يحسون بالاطمئنان عندما أخذت سرعة السيارة تتباطأ، وبدأ خوسيه يرسم لهم كلمات تهنئهم بالسلامة ويرسم البيوت التي سوف يقصدها كل واحد منهم.

حين رأى أيوب لأول مرة ابن عم والده- السيد وجيه- الذي كان ينتظره عند البوابة الخارجية لبيته، أحس بأن دماً جديداً يتدفق في عروقه بسرعة فائقة وكأن عالماً آخر قد بدأ يتشكل توّاً.

كان بيته مؤلفاً من طبقتين، يتوسط حديقة واسعة ومفروشة بعشب يشبه سجادة خضراء؛ سألته زوجة عمه عن أخبار قريتهم فحكى أيوب لها، فقالت:

- يبدو أنها لم تتغير عما عهدتها في السابق.

وسأله عمه عن أحوال والده فحكى له، فردّ قائلاً:

- وهو أيضاً لم يتغير عما عهدته في السابق.

أما أيوب فسأل من دوافع الفضول عن سعر المنزل لأنه في الحقيقة لم يرَ منزلاً يشبهه إلا في مسلسل «فالكون كريست».

طلب السيد وجيه من أيوب أن يتبعه، فصعد خلفه إلى الطبقة الثانية حاملاً حقيبة سفره.

قال السيد وجيه:

- هذه غرفتك يا أيوب، أرجو أن تعتبر نفسك في بيتك، ثم وضع في يده رزمة نقود وأردف:

- لا تخجل يا بني من أن تطلب مني أي شيء تحتاجه... والآن أعتذر منك لأن لدي عملاً يجب أن أنجزه.

رمى أيوب نفسه على كنبة بجانب باب يفضي إلى شرفة صغيرة تطل على حديقة المنزل، مرَّت عدة دقائق قبل أن يفتح عينيه، تحسس النقود التي بين يديه ووضعها في درج الخزانة ثم فتح

حقيبته وأخذ يرتب أغراضه، بعد ذلك حمل علبتي عطر قد اشتراهما لعمه وزوجته ونزل إلى الأسفل مخاطباً زوجة عمّه بالقول:

- أرجو أن تقبلي هديتي المتواضعة.

- بكل سرور، شكراً لك يا بني.

- وهذه لعمي.. كان على عجلة من أمره ولم أستطع..

- لا تقلق.. قاطعته وهي تأخذ منه علبة العطر الأخرى... سأعطيها له حين يعود. صمتت قليلاً ثم سألته كأنها تذكرت شيئاً هاماً:

- هل أنت جائع؟.

- لا.. ولكنني أشعر بالنعاس قليلاً.

- حسناً، إصعد إلى غرفتك وحاول أن تنام.

-5-

عندما استيقظ أيوب لم يعرف أين هو فقد ظل رأسه يدور كمطحنة قمح عتيقة، ولوهلة نسي أنه جاء إلى هذه البلاد البعيدة. نظر في الساعة ولم يصدق أنه نام يوماً كاملاً، نزل وهو يفرك عينيه كطفل بائس مغلوب على أمره فوجد زوجة عمه جالسة لوحدها تشاهد التلفاز في صالة الاستقبال.

- صباح الخير.

- صباح الخير. تفضل اجلس.

- أول مرة يحدث معي أن أنام كل هذا الوقت.

- من حق جسدك أن يرتاح. سأعد لك الفطور.

وجلسا إلى طاولة الطعام وراحت السيدة عائدة تتحدث بلا انقطاع. لم ير أيوب من قبل امرأة تملك شهية على الكلام مثل شهيتها، فكل حدث يحمل عندها حكاية طويلة، وكل فكرة تجر من ورائها أفكاراً وأفكاراً، كأنها في محادثتها معه تتمرن على الكلام وترفض أن توقف تمرينها المحبب هذا على عجلة، وقد حدث كل ذلك بسبب غلطة اقترفها أيوب حين قال في معرض حديثه:

- كانت رحلة جنونية لن أكررها طوال حياتي، إن عبورنا للبحر لم يكن سهلاً.

- البحر؟ وماذا تعرفون أنتم عن البحر!!!! أنا بقيت شهرين على متن الباخرة حتى وصلت... آه يا بني، لقد جعلتني أعود بالذاكرة إلى أكثر من ثلاثين عاماً.

- ....

عدلت من جلستها واستطردت قائلة:

- لم أتعرف في رحلتي تلك على غير البحر، بقيت شهرين أتحدث معه وهو يسمعني دون أن يضيق بي، حكيت له عن كل تفاصيل حياتي، عن فقرنا وعن حرماننا وعن طفلة لم تعرف يوماً دمية لتلعب معها، حكيت له عن مدينتي وعن أمي وعن..... تنهدت ثم أخذت نفساً عميقاً وتابعت.. وعن والدي.... رحمة الله عليه.

لقد جئت عروساً في مقتبل العمر، ولا أخفيك سراً أنني لم أر عمك من قبل، تعرفت عليه هنا، فقد درجت العادة في السابق أن يطلب والد العريس لابنه المسافر يد الفتاة من أبيها بعد أن يكون قد جمع معلومات كاملة عنها وعن أسرتها، فذات يوم بينما كنت أساعد أمي في أعمال البيت جاء والدي وقال:

- جهزي نفسك للسفر يا عائدة.

- سألت أمي: إلى أين؟

- أجاب: إلى فنزويلا.

نظرت أمي نحوي بقلق وقد أخذت الدموع تنهمر من عينيها كزخات مطر، أحاطتني بيديها كمن يمسك بشيء ثمين ويخاف أن يفلت منه، ثم سألت بغصة وكأن أكواماً من خشب تكدست داخل رئتيها:

- يا إلهي! كيف سأعيش من دون ابنتي؟ كيف سترحل عني إلى تلك البلاد ؟

- هذا نصيبها... أم أنك لا تؤمنين بالقضاء والقدر يا امرأة؟!!!!!

- أؤمن بالطبع... وأؤمن أن لا حول ولا قوة إلا بالله.

ربما حلم والدي بأن يوفر لي حياة جيدة لم يستطع هو بنفسه أن يوفرها لي، أو ربما فكر بأن أساعده في أن يتخلص في يوم ما من الفقر الذي كنا نعيشه، أو ربما كان النصيب... أجل النصيب... من يدري؟

- ....

لاحظت السيدة عائدة أن أيوب قد شبع فأخذت تعد القهوة من غير أن تسأله، واستمرت في حديثها:

- بصراحة يا بني لم يتغير عليّ شيء.

- ....

- جئت من بيت فقير إلى بيت فقير آخر، كان وضع عمك يرثى له، أجل يرثى له، لا تستغرب؛ فوضعت أحلام العروس جانباً وصرت أصنع الخبز العربي والجبن واللبن وأعمل على بيعها في السوق، مرت علينا سنين يتعذر عليّ وصفها، ويكفي أن أقول لك إن التفكير في المستقبل كان مؤجلاً دائماً، كنا نعيش كل يوم بيومه، لكن حين ولدت ناديا أخذ المستقبل يلوح أمامنا من البعيد ويدعونا للحاق به، وبين شدة الحياة وبراءة ناديا كان يجب علينا أن نتحدى أكثر وأن نحب الحياة أكثر.

- وأين هي الآن؟

- تدرس طب الأسنان في إسبانيا، بقي عليها سنة، وتنهي اختصاصها.

- متزوجة؟

- لا، ليست متزوجة.

- ولماذا اختارت الدراسة في إسبانيا؟

- أنا يا بني لا أفهم كثيراً بهذه الأمور، سوف تعود بعد بضعة أشهر لتمضي بيننا عطلة نهاية العام الدراسي ، عندها تستطيع أن تسألها بنفسك.

هكذا كان أيوب يمضي أوقاته.. يستمع إلى أحاديث السيدة عائدة ويشاهد التلفاز. في البداية لم يلاحظ غياب عمه المتواصل، لكن بعد شهر تقريباً تحول رأسه إلى كرة تتجاذبها أفكار شتى.

سأل نفسه مرة : هل يريد عمي أن يقول لي بطريقة غير مباشرة إنه لا يريد مساعدتي؟ لماذا لا يحاورني مثل زوجته؟ لماذا يقدم لي النقود ولا يفتش لي عن عمل؟ إذا بقيت على هذا الموال

سأخسر حياتي، فأنا لست أكثر من سجين في هذا القصر..إلى أين أذهب؟... إلى من ألتجىء كي أحصل على عمل ما؟

وذات يوم قرر أيوب أن يعود أدراجه، وينهي رحلته التي تشبه السفر في نفق مظلم، لكن الدفء الاستثنائي الذي كانت تقدمه له السيدة عائدة غدا كنور أبيض يشع في نهاية ذلك النفق.

-6-

كانت الأيام تجري مراكمة وراءها الشهور والسنين، وكان أيوب يتحمل تبعاتها وتحولاتها بصبر، وكل ضربة كان يتلقاها لم تكن لتميته بل كانت لتقويه، فأخذ رأسه يتطاول كدالية عنب نحو مفاهيم جديدة عن الحياة التي يعيشها.

حدث مرة أن زار الأستاذ سهيل بيت أيوب، فاستقبله والده بكل ترحاب:

- كيف خطرنا على بالك؟

- الحقيقة يا أستاذ يوسف، منذ وقت طويل وأنا أفكر بزيارتك، لكن كما تعرف فإن الظروف تقف أحياناً حواجز أمام الرغبات.

- البيت بيتك. أهلاً وسهلاً بك في أي وقت تشاء.

دار نقاشهما بحكم مهنتهما كأستاذين حول قضايا التعليم وحول المناهج التي لابد أن تتغير وتتطور، وتحدثا أيضاً عن ارتفاع الأسعار وعن هموم الشباب.

شرب الأستاذ سهيل قهوته وطلب من الأستاذ يوسف أن يتكلم مع أيوب على انفراد.

- تريد أن تتحدث مع أيوب؟ هل فعل شيئاً سيئاً معاذ الله؟

- لا على العكس تماماً يا أستاذ يوسف ابنك من خيرة الشباب، إلا أنه يوجد موضوع خاص أريد أن أبحثه معه على انفراد بعد إذنك.

نادى السيد يوسف على ابنه ثم خرج وأغلق الباب خلفه.

قال الأستاذ سهيل:

- أصبحت يا أيوب في عمر يسمح لك بأن تفتش عن هدف في حياتك، إن انتماء الإنسان لفكر معين يعطيه هوية. ثم فتح حقيبته وقدم له مجموعة من الكتب وأضاف:

- أنتظرك الخميس مساءً في بيتي، ستتعرف على رفاق من عمرك.

وبعد أن غادر الأستاذ سهيل عاد أيوب إلى غرفته وبدأ يقرض الكتب كفأرٍ جائع.

كان الأستاذ سهيل خطيباً من الدرجة الأولى يحَضر كلماته كما يحَضر الساحر عمله، وكان أيوب في سنواته الأولى في الحزب يحاول تقليده فصار يمشي مثله ويدخن مثله ويستخدم كلمات لا يعرف معناها، ربما لكي يعرض ثقافته أمام رفاقه أو لكي يختبئ وراءها من أجل أن لا يفضح جهله.

لقد قاد الرفيق سهيل أيوب ورفاقه إلى عالم جديد لا يرون فيه صورتهم إلا من خلال التزامهم، كان عليهم أن يكونوا شباناً مثاليين فنسوا كل ما يمكن تسميته بالابتذال، حتى إنهم نسوا الغزل ونسوا العشق وتحولت المرأة بالنسبة إليهم إلى موضوع لورشة عمل بدلاً من أن تكون نشيد حب أو قطرة ندى تتأرجح على زهرة أقحوان، وبدأ الخوف من الخطأ يفزعهم ويحوم فوق رؤوسهم

كطائر متوحش يترقب فرصته للانقضاض في أية لحظة، وبدأ الشعور بالمسؤولية يدفعهم إلى حالة من القلق الدائم والعمل الدائم أيضاً حتى إذا تأخر هطل المطر في الشتاء كانوا يشعرون أنه جزء من مسؤوليتهم.

وتلون التزام أيوب في البداية بألوان الطيف، لكنه شيئاً فشيئاً أصبح يميل إلى السواد حين أيقن أن الأستاذ سهيل والمسؤولين في الحزب لم ينبسوا ببنت شفة وصموا آذانهم عندما اعتقلت السلطة رفيقهم جهاد.

تحدثت القرية عن أن جهاد كتب على جذوع الأشجار: أطلقوا سراح التفكير. وتحدثت الطيور أنه سقطت من عينه دمعة فامتلأت الحقول سنابل. وتحدث الناس أنه ذات يوم أخذه البوليس وكانت أمه تبكي وتصرخ: إلى أين تأخذونه؟... ماذا ستفعلون به يا كلاب؟... أعيدوا لي ابني.

وبعد سنة تقريباً ظهر جهاد فجأة كما اختفى فجأة آنذاك.

حين زاره أيوب لأول مرة بعد خروجه من السجن لاحظ أن ملامح وجهه تغيرت وأن عينيه فقدتا لمعانهما، حتى أن صوته أصبح يشبه صوت رجل محطم خسر كل ما يملك من قوة.

- لا أدري ماذا أفعل يا أيوب ؟! أشعر بأنني مهمل ومخذول ووحيد.

- هون عليك يا أخي لست أول شخص يعتقل.

- لا يهمني الاعتقال.... القضية أكبر من ذلك.

- لم أفهم؟ ماذا تقصد؟

- لقد قدمت استقالتي من الحزب.

- هل جننت! إذا أخطأ بعض الرفاق بحقك نتيجة خوف أو نتيجة اعتبارات ما خاصة بهم فالمبدأ ليس على خطأ.

- هذا هو بيت القصيد، عن أي مبدأ تتكلم! لقد جاؤوا البارحة من جديد و لن تصدقني إذا أخبرتك عن السبب.

- طبعاً أصدقك، قل لي ماذا حدث؟

أشعل جهاد سيجارة وأخذت عيناه تجولان في الغرفة كأنه يراها للمرة الأولى، ثم قال بنبرة يائسة:

_ قبل يومين سمعت أمي تشتم وتصرخ عند باب البيت... خرجت كالمجنون فوجدت رجلين من البوليس واقفين عند البوابة، أشرت إلى أمي أن تدخل ثم سألتهما:

- والآن ما المطلوب؟

- لا تخف.. إجراءات روتينية...إذا سمحت تفضل معنا.

بدلت ثيابي وصعدت معهما إلى السيارة التي كانت تنتظرني في الخارج، وعندما وصلنا قاداني إلى مكتب رئيسهما الذي استقبلني كمن يستقبل صديقاً حميماً لم يره منذ سنوات وقال:

- أهلاً وسهلاً بالأخ جهاد!

- ....

- لن أضيع وقتك فقد علمت أن أمك قلقة عليك.

- ....

- أرجو أن تخبرني بصراحة لماذا قدمت استقالتك من حزبك؟!

- ماذا؟

- أريد أن أعرف لماذا قدمت استقالتك من حزبك؟

فجأة لم أعد أقوى على التفكير.. فطلبت كأس ماء لأشربه.

- عليك أن ترجع غداً إلى صفوف رفاقك، واعلم أن ما أقوله لك ليس اقتراحاً يا أخ جهاد بل أمراً.

تحدثت القرية عن أن جهاد سافر إلى بلد عربي ليعمل هناك. وتحدثت الطيور أنه تحول إلى ضوء صغير في سماء سوداء فأصبحت النجوم تسافر إليه. وتحدث الناس عن أنه هجر بيته وترك أمه الأرملة تواجه الحياة وحيدة وحزينة وصامتة.

-7-

استيقظت صباحاً كما كل يوم، ونزلت لتناول طعام الفطور مع زوجة عمي، ولكن ما حدث لم يكن يحدث كالعادة.

- يا سبحان الله كيف تغير وجهك. قالت السيدة عائدة وهي تسكب الشاي، طبعاً أن تجلس مع عمك أفضل من الجلوس معي.

- صدق من قال إن النساء لا يجلبن إلا الصداع، دعي الشاب يتناول طعامه بهدوء يا عائدة، أردف السيد وجيه ثم تابع موجهاً كلامه إلى أيوب : لا أدري يا بني كيف استطعت أن تتحمل كل هذا الوقت وأنت تستمع إلى أحاديث زوجتي ؟

- على العكس تماماً يا عماه.. لن تتخيل مدى سعادتي بالتحدث معها.

- هل سمعت بإذنك؟ الجميع يمدحني إلا أنت. طبعاً أشغالك أعمتك عني.

- عدنا إلى الأسطوانة ذاتها....

- أعتذر، أعتذر.. أرجوك لا تغضب.. أعرفك حين تفقد أعصابك. أجابت السيدة عائدة وانشغلت بتقطيع الخبز.

- إيه، قل لي يا أيوب كيف وجدت فنزويلا؟ هل أعجبتك؟

- الحقيقة لم أر شيئاً بعد.

- هز السيد وجيه رأسه كإشارة بعدم الرضا وقال: طبعاً لن ترى شيئاً طالما تقضي وقتك كله في المنزل. أخرج تعرّف على الناس، تعرف أقلّه على المنطقة التي تعيش فيها، لا تتقوقع على نفسك بهذه الطريقة، لا أحد رأى هذا البلد إلا ووصفه بالجنة. هل ينقصك نقود؟ لقد أخبرتك من قبل بأن تطلب مني كل ما تحتاجه..لا تخجل مني يا بني.

- أيوب يريد أن يعمل يا وجيه: قالت السيدة عائدة.

- ولماذا العجلة يا بني؟

- حاولت ألف مرة أن أقنعه لكن لا حياة لمن تنادي. أخاف أن ينتقدنا والده ويظن أننا لا نريد أن نستضيفه وقتاً أطول.

- ما الذي تقولينه يا سيدة عائدة، لقد حكيت لوالدي عنكما وكلما أهاتفه يقول لي: اعتن بعمك وزوجته كما يعتنيان بك وأكرمهما كما يكرمانك.

- إذاً هذا وحده كفيل بأن يعطيك مساحة للحركة، ويخرجك من الدائرة الصغيرة التي رسمتها حول نفسك. أردف السيد وجيه ثم قال متسائلاً: إذا كانت مشكلتك الوحيدة هي العمل فستبدأ بالعمل معي اعتباراً من اليوم إذا شئت.

- بصراحة لا توجد عندي أية مشكلة يا عماه. لكنني ، وبسبب بعض الظروف، أشعر أحياناً بالإحباط ربما يرجع السبب كوني لا أزال أبحث عن ذاتي المصادرة.

- ماذا؟ ذاتك المصادرة؟ سأل السيد وجيه بدهشة ثم تابع وهو يضحك بشكل هستيري: أنت فاكهة يا أيوب...تبحث عن ذاتك المصادرة وأنا اعتقدت بأنك جئت لتبحث عن مليون دولار.

- والمضحك بالأمر؟ أجابت السيدة عائدة معاتبةً. يجب على كل واحد منا أن يبحث عن ذاته المصادرة وبالأخص أنت وأنا. هل تستطيع أن تعطيني إجابة صريحة عن نفسك؟ إذا سألني أحدهم عنك أو عني فماذا أجيبه؟ دعه يبحث عمّا يريد .

مسح السيد وجيه يديه وفمه بمنديل كان موضوعاً على الطاولة ثم وقف وحمل مفاتيح سيارته وقال بنبرة غاضبة: «أسرع يا أيوب لقد تأخرنا».

****

بدأت المضيفة تقدم الإرشادات اللازمة التي يجب أن يتقيد بها المسافرون في الحالات الطارئة، جلس أيوب على مقعده واضعاً حزام الأمان، ولم تمض بضع لحظات حتى انطلقت الطائرة ثم أقلعت حسب مسارها المحدد... امتلأ المكان بأصوات متناثرة بسبب حركة الركاب العشوائية وأحاديثهم الجانبية، فمنهم من بدأ يفك حزام الأمان ومنهم من بدأ بالمشي في ممر الطائرة، ومنهم من بدأ بتعديل وضعية مقعده لينام.

أطفأ السيد وجيه مذياع السيارة، سأل وهو يحدق في الطريق.

- هل لديك بديل؟

- بديل؟ عن ماذا؟ لم أفهم.

- يعني هل تعرف أحداً غيري؟.

- لا.

- هل قُدم لك عرض لعمل ما؟

- لا.

- هل يكفيك 3000 دولار كراتب شهري؟

- ماذا تقول يا عماه ! لم أحلم في حياتي بربع هذا المبلغ.

- ستكون المسؤول في متجري عن كل شيء، سوف تدير العمل ولكن الذي سيشتري البضائع هو أنا.

- في الحقيقة لا أدري كيف أشكرك.

- تستطيع أن تشكرني بجديتك في العمل والتزامك به، حاول أن توقف البحث عن ذاتك المصادرة وأن تفكر في بناء مستقبلك، فلا يوجد أتعس من رجل يصل إلى سن الستين من عمره فقيراً ومعدماً ومهاناً.

كانت السوق تشبه الأسواق القديمة، شوارع ضيقة ومتكسرة.. بيوت عتيقة.. فقر.. فوضى...وحركة أناس طارئين.

دخل السيد وجيه متجره المؤلف من ثلاث طبقات كبيرة لبيع الأجهزة الكهربائية والأدوات المنزلية، وأخذ يتحدث مع عماله، بينما بقي أيوب واقفاً في الخارج أمام أحد أبواب المتجر الستة، ظن السيد وجيه أنه أضاع أيوب فعاد بسرعة يبحث عنه.

- لماذا تقف هنا؟ تعال ادخل.

- أتأمل هذا البناء الضخم.

- سوف تمتلك واحداً مثله بعون الله، أنا واثق من ذلك، لكن يجب عليك أن تنتبه لنفسك منذ الآن وتستغل كل لحظة.... المستقبل لا يعذر أحداً يا أيوب، لا أريدك أن تصبح مثل كثير من أبناء بلدك الذين يركضون ورغيف الخبز للأسف يركض أمامهم.

وضع السيد وجيه يده على كتف أيوب وطلب منه الجلوس على كرسي يتقدمه مكتب كبير وقال:

- هذا هو عملك. سأمر عليك الساعة السابعة مساء لأصطحبك إلى البيت.

- على مهل يا عماه. صاح أيوب كمستغيث يطلب النجدة.

- قل يا بني ماذا تريد! أجاب السيد وجيه متعجباً.

- .. عفواً لأني رفعت صوتي.. لكن كما تعلم، أنا لم أتقن اللغة بشكل جيد لكي أتحدث مع الزبائن، ولا أعرف الأسعار، ولا أعرف أصلاً كيف تدور آلية العمل هنا.

- ومن منا جاء يعرف كل هذا...أعذرني يا أيوب.. أشغالي كثيرة ولا أملك الوقت الكافي .سنتحدث فيما بعد. على كل حال سكرتيرتي روسا ستعلمك كل شيء.

- روسا؟؟؟؟.....

- ....

- ......

- ......

كانت روسا تشبه وطنها، خليطاً من أجناس متعددة: عينان مثل حدائق إسبانيا وشعر كثيف كغابات الأمازون وجسد لا يزال يحمل ذكريات إفريقية مهاجرة.

- إذاً أنت أيوب.

- نعم، وكيف عرفتني؟

- حدثنا السيد وجيه عنك.

- ....

- أنا روسا.

- .....

وعند الساعة السابعة مساء مر السيد وجيه ليصحب أيوب إلى البيت لكنه لم يذهب معه بل ذهب مع روسا لتناول طعام العشاء.

****

كان بيت روسا يشبه خيمة كتلك الخيمة التي يحملها سائح أو مهاجر جاء إلى بلد ما لكنه كان من الداخل مليئاً بشيء يشبه الحنين، وبرائحة تشبه رائحة الأرض في أول الشتاء.

حاولت روسا في البداية أن تتكلم وأن تغني لكنها أيقنت أن اللغة لن تساعدها كثيراً فقررت أن تستخدم لغة الإيماء.

- هل شبعت؟

- أجل.

- انتظرني سأستحم... قالت وكانت الفوضى في شكل أسنانها تعطي ابتسامتها سحراً من نوع مختلف.

- قال أيوب في نفسه: لن تنسي هذه الليلة يا جميلتي.

خرجت روسا بلباسها الداخلي ووقفت أمامه كامرأة كان قد رأى شبيهاتها في إحدى المجلات، فبادرها قائلاً:

- ما أعذبك. أجابته:

- ألمسني، وجاء ردّه:

- سآكلك كسمكة مشوية.

ضحكت وانسلت إلى السرير بهدوء وصمت، فبدأ يأكلها كسمكة مشوية، وبعد دقائق معدودة ارتمى بجانبها يعتريه شعور بالرضا، ثم نظر إليها نظرات فارس متغطرس نجح في ترويض فرسه.

سألتْ وهي تمسح العرق عن جبهته:

- هل هذا كل شيء؟.

- ماذا بعد؟ وهل هناك شيء آخر؟. أجاب مستفسراً.

فبدأت روسا تغمره بين مد وجزر كموج البحر حتى شعر أنه يغرق .

حين استيقظ في صباح اليوم التالي كان بالكاد يستطيع تحريك رجليه، وصار يجر جسده بتثاقل كأنه يمشي في صحراء حارة. أما هي فقد ارتدت ثيابها وأعدت الفطور وأخذت تحوم حوله بلا كلل أو ملل كنحلة لا تزال تبحث عن رحيق.

قال السيد وجيه:

- عليك أن تهتم بغذائك يا أيوب.

قال عماله:

- نحن لاتينيون.

وقالت زوجته:

- احذر من الأمراض يا بني.

-8-

لم يعارض والد أيوب فكرة الزواج مرة ثانية، فبعد مضي خمس سنوات تقريباً على وفاة زوجته كان لابد من أن تحمل امرأة ما قلقه وعبثه ومزاجيته واغترابه، كان لابد من أن تشاركه امرأة ما حياته أو ما تبقى فيها من سنوات، أن تحكي له عن عالم قديم انتصر فيه السندباد على أعداء الملك العادل وكيف قتل عنترة بسيفه ألف رجل وكيف مشى قيس في الصحراء مجنوناً لا يعرف يمينه من شماله.

كان لابد من ان تعترف له امرأة ما في يوم شتاء بارد أنه يشبه قصيدة كُتبت لتبقى....كان لابد له من الزواج. وحين سأل أيوب عن رأيه بسلمى ذات الأربعين عاماً وافق لأنه ببساطة لم يحاول خلق أسئلة سفسطائية لا إجابة لها حول زواج أبيه، بل كان كل همه أن يراه سعيداً وأن تأخذ السنون حقها الكامل من حياته المتبقية.

استطاعت سلمى خلال فترة قصيرة أن تكسر الصمت الذي اجتاح والد أيوب طوال تلك السنوات، لقد عرفتْ منذ البداية ما يريده منها، فكانت تارة تغني له كي يحَلق، وتارة أخرى تهدهد له كي ينام.

حين أنهى أيوب الثانوية العامة وبدأ يستعد لدراسته الجامعية في العاصمة شعر أن مؤسسة والده الزوجية الجديدة لا يمكنها أن تستوعب إلا شريكاً واحداً، خصوصاً وأن الدخل بالكاد يكفي لتغطية احتياجات البيت، فقرر الاعتماد على نفسه والانسحاب من حياة أبيه بصمت وهدوء.

حكى الأستاذ سهيل مع بعض الرفاق من أجل إيجاد عمل له، ولم يمض وقت طويل حتى أخبره أحدهم بأنه توجد وظيفة شاغرة في مكتب مطبوعات الحزب في العاصمة، فوافق على الفور من غير الأخد برأي أيوب.

وكان الخروج الذي كان أيوب على موعد معه في أية لحظة.

توجه إلى منزل الأستاذ سهيل ليودعه وليستفسر بوضوح أكثر عن طبيعة عمله قبل أن يغادر إلى العاصمة، وعند وصوله سمع صوت زوجته يدوي في المكان، فوقف أمام الباب الخارجي المغلق حائراً لا يعرف إذا ما كان يريد البقاء أو العودة.

- ماذا تريد بعد؟ ألا تكتفِ بسنوات عمري التي ضاعت معك عبثاً؟ تمنيت للحظة أن تشعرني بأني امرأة كبقية النساء تعيش في بيت تملكه وليس في الإيجار، تملك فساتين وأحذية وعطوراً وأدوات مكياج..

- هل هذا ما تريدينه وما تحلمين به؟

- متى تستطيع أن تفهمني يا سهيل أو أن تستوعب مخاوفي؟. لو كانت هذه الأشياء فقط حلمي لما صبرت عليك كل هذه السنين.... كل ما أريده منك أن أشعر بالأمان أن أشعر بأني امرأة، مللت من حياتي وقتلني ذلك الكابوس الذي اسمه المستقبل.. ابنتك تكبر وطلباتها تزداد وغداً.....

- وماذا أفعل؟ لا أعرف إلا مهنة التدريس. ما رأيك هل أسرق؟

- هذا جواب الضعفاء مثلك الذين تعودوا على الكسل وعبدوا الفقر.

- اهدأي الآن... ألا ترين ابنتك تعتصر ألماً..شجارنا سيولد لها عقدة نفسية.

- ابنتك ستتعقد إذا بقيت في هذا البيت تشاهد والدها يبحث عن سراب.

فتحت زوجة الأستاذ سهيل الباب الخارجي وهي تشد ابنتها الصغيرة من يدها، واعترتها الدهشة وهي ترى أيوب واقفاً كالصنم أمامها فقالت:

- أهلاً بالبطل الشاب! أهلاً بالمحرر الجديد! جئت لتبني مع زوجي مجتمع الديمقراطية والعدالة.

- إذا أردت الذهاب فاذهبي ولا حاجة لمثل هذا الكلام. قاطعها الأستاذ سهيل بينما بقي أيوب ينظر بعينيه يميناً وشمالاً كالأبله.

- كلكم أنانيون لا تفكرون إلا بأنفسكم، تضيعون الوقت بترهات سخيفة.

- إقطعي لسانك وكفي عن الكلام.

- بؤساء وعاجزون وحاسدون..... على كل حال أنا في بيت أهلي، حاول أن تجد حلاً لحياتنا..ليس فقط من أجلي أو من أجل ابنتك.. بل من أجلك أنت.

دعا الأستاذ سهيل أيوب إلى الدخول، وعلى الرغم من قدرته على تمالك أعصابه إلا أن علامات الغضب كانت بادية على وجهه رافضة أن تغادره.

- لقد مات فرويد وهو يتساءل: ماذا تريد المرأة؟. على كل حال أنا آسف لما حصل أمامك..سأحضر لك القهوة.

وقف أيوب أمام نافذة شبه مفتوحة يدخن سيجارته بصمت محاولاً أن ينسى ما رآه وما سمعه قبل قليل، كان يكره أن يجد الأستاذ سهيل ضعيفاً، إلا أنه على الرغم من ذلك لم يعرف كيف تعاطف مع زوجته، ربما لأنه اعتقد أن حبها الحقيقي والشرعي والمنطقي الذي تحمله تجاه أسرتها قد طرق بابها فكان عليها أن تستقبله من دون أن تساوم على العواقب، أو ربما لأنها تشبه أولئك الذين يؤمنون بأنه لكي يتحول الزواج إلى مؤسسة ناجحة يجب أن يكون أو لا يكون.

- تعال اشرب القهوة، بإمكانك التدخين هنا.

- ....

- متى ستلتحق بعملك؟ سأل الأستاذ سهيل وهو يقدم لأيوب فنجان القهوة.

- غداً صباحاً..جئت لأودعك.

- حاول أن تستفيد من تجارب رفاقنا فأنت ستكون في مركز الحدث، هناك تصنع القرارات.

- أشعر بالاضطراب بعض الشيء. إنها المرة الأولى التي أبتعد فيها عن والدي وعن قريتي.

- لا تقلق ستعتاد على عالمك الجديد يوماً بعد يوم، المهم أن لا تخبو تلك الجذوة في قلبك... آه، بالحق، كيف حال والدك؟.

- بألف خير لا يزال يعيش شهر العسل.

أبعد الرفيق سهيل فنجان القهوة عن شفتيه وأردف كأنه يتكلم مع نفسه:

- سينتهي العسل ويصبح ذلك الشهر يشبه كل شهور السنة، بارداً أحياناً وحاراً أحياناً..... وأحياناً معتدلاً.

سافر أيوب وكان الخوف والقلق يحلقان فوق رأسه كغيوم رمادية، لكنها تبددت حين شاهد العاصمة لأول مرة: عذراء نائمة يحرسها إخوتها العمالقة من كل الجهات، فوقع بحبها وتمنى أن تستيقظ لحظة ليرى لون عينيها. سأل الناس عن اسمها فأجابوا: تاريخ. وسألهم عن أحلامها فأجابوا: فتش عنها في قلبك. فجأة لفحه هواء بارد محمل برائحة الياسمين والخبز والعشب الأخضر فابتسم وتبللت عيناه من غير أن يشعر بالدموع.

-9-

كانت تلك المرة الأولى التي يجتمع أيوب فيها مع عمه أو أقلّه يراه لأكثر من ساعة، أحس بأن الوقت حان لكي يعقد معه صداقة ما تبعده أو تنسيه بأنه آلة تعمل وفقاً لإرادة الآخرين ومصالحهم. قرر أن يصارحه بما يدور في ذهنه لكنه رآه لا يزال منهمكاً في مراجعة الفواتير وتلقي الاتصالات، فاتجه نحو الخارج وراح يتأمل رصيف الشارع الطويل المكتظ بالبائعة المتجولين الذين يتزايدون يوماً بعد يوم وكأن العالم كله سقط هنا، من كولومبيا جاؤوا ومن بوليفيا ومن الإكوادور ومن بيرو لكي يعيشوا هنا في هذا الشارع تحت شوادر مصنوعة من النايلون الرخيص لتقيهم وتقي بضاعتهم حرّ الشمس وهطل المطر، أطفالهم يأكلون في ظل تلك الشوادر، وكذلك يقومون بواجباتهم المدرسية ويستسلمون للقيلولة...... وطنهم.. أحبتهم.. أزقة طرقاتهم العتيقة.. رائحة الخبز.. استبدلوها جميعها بشادر .

سمع صوت عمه يناديه فدخل من جديد.

- إلى أين ذهبت؟

- كنت واقفاً في الخارج ، رأيتك مشغولاً في عملك ولم أرغب بإزعاجك.

- هكذا هي التجارة يا أيوب. عليك أن تلاحقها دائماً وإلا ستفقد في أيام معدودة كل ما بنيته خلال سنين. قل لي هل أخذت تتأقلم مع العمل؟

- أجل.. لكن..

- لكن ماذا؟

- لاشيء.. لا شيء.

- صارحني يا أيوب. لقد وضعت كل ثقتي بك ، فأرجو أن تثق بي أيضاً.

- أشكرك يا عماه!... لكن.. لكن لا أدري بأية طريقة أستطيع أن أقصر المسافة بيني وبينك. أقصد إننا لم نتحاور قطّ ولم نجتمع يوماً.. تصطحبني إلى العمل وتعيدني إلى البيت الذي أنت غائب عنه دائماً.... أشعر كأنني ضيف ثقيل أو عالة عليك.... حتى صرت أخاف من أن أكون سبباً حقيقياً لولادة خلافات بينك وبين زوجتك.... في الحقيقة أفكر بأن أستأجر منزلاً....

- أنت مجنون يا أيوب، أقسم بالله بأنك مجنون.. تتكلم وتفكر بشكل مختلف تماماً عن كل الناس، من قال لك بأنك ضيف ثقيل؟ ولماذا دائماً تلمح إلى هذه المسألة؟ ثم هل ضاق بك منزلي الواسع ؟

- أرجوك لا تسئ فهمي يا عماه، ثم أنا لا ألمح إلى شيء.. الواقع يتحدث عن نفسه.

- وعن أي واقع تتكلم؟.

- عن غيابك المتواصل.

- يعني تريد القول إن وجودك في منزلي يقيد حريتي ولهذا أفضل البقاء خارجه. أليس هذا ما تعنيه؟

-.. ...

- قل لي أولاً لماذا تحاول التفكير عني؟ ثم لماذا لم تسأل نفسك قبل وصولك إلى نتيجتك الخيالية هذه عن حجم المسؤوليات الملقاة على عاتقي أو عن طموحي الشخصي مثلاً؟ أم أنك تنظر إلي كرجل لا أحلام لديه؟...على كل حال يا بني سررت بالحديث معك رغم عدم موافقتي على ما تفكر به. أجاب السيد وجيه ثم انهمك من جديد في مراجعة الفواتير.

خال أيوب أن عمه قد أنهى حديثه فهمَّ بالانصراف، ولم يبتعد عنه خطوتين حتى سمعه يقول دون أن يزيح نظره عن الأوراق التي بين يديه:

- صحيحٌ أنّ القرود تتعارك مع بعضها على الأشجار بسبب انقطاع الحوار بينها، لكن أيضاً بسبب عدم رغبتها وعدم قدرتها على مغادرة تلك الأشجار والبحث عن آفاق جديدة.

لم يجب أيوب ولم يحاول متابعة حواره مع عمه بل تابع سيره ثم توقف بالقرب من روسا التي كانت تتحدث مع أحد الزبائن، وراح يفكر بإمعان بكلمات عمه وما تعنيه. نظرت إليه روسا فوجدته أسير ظله، التقطت يده وشدت عليها وشعرت أن شيئاً ما داخل أيوب بدأ يزهر أو ربما... بدأ يحترق.

****

أطفأ السيد وجيه محرك سيارته ، حمل بعض المصنفات وطلب من أيوب أن يساعده في حمل حقيبته الشخصية ودخلا إلى المنزل.

كانت السيدة عائدة جالسة في الصالة مع امرأة لم يرها أيوب من قبل، وتعجب كيف ركض عمه على الفور وعانقها وهو يضحك.

اقتربت السيدة عائدة وقالت لأيوب:

- هذه خوليتا أعز صديقة لنا، تعرفنا عليها حين قدمنا إلى هذه المدينة ومنذ ذلك الوقت أصبحت هي وابنتاها جزءاً لا يتجزأ من حياتنا، لكن علاقتها بعمك كعلاقة الشحم والنار.

طلب السيد وجيه من أيوب أن يأتي وهو يقهقه:

- أيوب.. أيوب.. تعال وتعرف على المرأة التي سُرقت مرتين في يوم واحد.

وضع أيوب الحقيبة على طاولة صغيرة ثم اتجه صوب السيدة خوليتا وصافحها بينما ظل السيد وجيه يلح عليها بأن تحكي له عن حادثة السرقة.

- لا تصغِ لسخريته، يعتقد نفسه أفضل الرجال، وهو في الحقيقة ليس إلا مجنون مثلهم. قالت السيدة خوليتا.

- حدثيه عنك وليس عن عمه. أجاب السيد وجيه وأضاف: على كل حال هذا المجنون يستأذن الآن.

- طبعاً سوف تستأذن فقد تأخرت عن عشيقتك.

عانق السيد وجيه من جديد السيدة خوليتا وقال:

- عن أية عشيقة تتكلمين! الذي مثلي لا وقت له للعبث.

غادر السيد وجيه المنزل وظل أيوب للحظات متأرجحاً في الهواء لا يعرف ماذا يفعل، هل يستأذن ويدخل إلى غرفته أم يبقى جالساً؟ لكن سرعان ما سمع السيدة خوليتا تقول له:

- لا تتعجب يا بني إذا قسوت على عمك، ففي بعض الأحيان يصل صوت شجارنا إلى آخر الشارع، إنه عنيد وأنا أعند منه، ومن نظرة واحدة أعرف ما يدور في رأسه...وفي رأس عائدة أيضاً.

- رأسي يكاد ينفجر. أجابت السيدة عائدة.

- طبعاً سينفجر لأنك تعودت على وضعك هذا. أجابت السيدة خوليتا بحدة وقسوة.

- وماذا أفعل؟ أحاوره؟ هذا أيوب اسأليه وسيشرح لك كيف يفور كالحليب حين أحاوره.

- لن أسأل أحداً لأن المشكلة تتعلق بك شخصياً.

- وما عساي أن أفعل؟ قمت بما أملاه عليّ ضميري، عملت إلى جانبه طوال سنوات فقرنا لكن بعد أن تحسن وضعنا المادي لم يعد بحاجة لمساعدتي إلى درجة أنه لا يخبرني عن عمله؛ فمملكته يبنيها لوحده أو ربما تشاركه في بنائها امرأة تتمتع بمواصفات غير موجودة عندي.

- طالما تفكرين بهذه الطريقة فلن تخرجي بحياتك من دائرة حزنك، الأحرى بك أن تنتقدي ذاتك أولاً وتبتعدي عن لوم الآخرين وتقدمي نفسك بطريقة صحيحة.

- أقدم نفسي؟ كيف؟ لم أفهم ماذا تعنين؟

- أقصد أن تكفي عمّا اعتدت عليه أو بالأحرى عمّا عودوك عليه في تقديم نفسك مثلما تقوم به غالبية النساء.

- وكيف تريدينني أن أقدم نفسي؟ أتجاهله؟ آخذ ابنتي وأعيش في منزل آخر؟ أطلب الطلاق منه؟.

- على مهلك يا عائدة لا تنفعلي بهذا الشكل، فكل ما أريد قوله إن كل امرأة اعتادت أن تقدم نفسها أمام الناس على أنها زوجة فلان وأم فلان وابنة فلان، وغالباً ما تتكلم عمَّن هم حولها وتنسى أن تعَبّر عن نفسها، وها أنت الآن تعترفين بأنك عملت مع زوجك وساعدته.. أليس هذا نقصاً بهويتك، فمتى يمكنك أن تتحدثي عن نفسك وعما استطعت تحقيقه أنت شخصياً.

- لكن هذه هي الحقيقة، ساعدته في الوقت الذي كنا بحاجة لتحسين وضعنا المادي.

- والآن ماذا حصل؟ وضعكم المادي تحسن فهل ستعتزلين الحياة! أم أن دورك قد انتهى؟. يا عائدة إن هويتنا كنساء تعتمد أولاً على عدم توقفنا عن إنتاج الحلم وعلى تحديد نوع المرأة التي نرغب في أن نكون... يجب أن ندافع عن أحلامنا التي نملكها ونتعلم أن نكون مسؤولين عنها أيضاً. قولي ما الفرق بيني وبينك؟

- لا أعرف. لا أعرف رأسي سوف ينفجر.

- الفرق بسيط، فقد توصلت إلى هذه القناعة بعد تجربة. لقد تعودنا أن نكون ملتصقين بأحد ما، وإذا فكرت واحدة منا بأن تستقل تكون قد حكمت على نفسها بالموت...هذا ليس صحيحاً يا عائدة، هذه مجرد أكذوبة صدقيني، فأنا حين انفصلت عن زوجي توقعت أنني سأحمل صليباً على ظهري ولن أستطيع التقدم خطوة واحدة لكنني تغلبت على مخاوفي ومضيت قدماً أشق طريقي بصبر وشجاعة وأشكر الله بأني استطعت أن أقدم لابنتيَّ كل ما تحتاجانه تقريباً.

صمتت السيدة عائدة فجأة وكأنها للمرة الأولى تمتنع عن الكلام مع أنها أكثر امرأة تشتاق إليه. سأل أيوب نفسه هل يا ترى وافقت زوجة عمي على آراء صديقتها؟ هل تفكر باتخاذ قرار ما؟ وإذا فكرت فعلاً فماذا ستختار؟ الانفصال؟.. الرحيل كما فعلت زوجة الأستاذ سهيل؟ أم أنها فعلاً تشعر بأنها مثل غيرها من النساء اللواتي يعشن داخل قفص الزوجية مهمشين يقبرن أحلامهن بأيديهن؟.

نظر حوله فوجد كل واحدة منهما شاردة في عالمها الخاص وقد حولهما الصمت الذي لف المكان إلى تمثالين جامدين، فتذكر عندما طلب عمه من السيدة خوليتا بأن تخبره عن حادثة السرقة التي تعرضت لها، فسألها محاولاً أن يخفف من هول ذلك الصمت.

- هل فعلاً يا سيدة خوليتا سُرقت مرتين في يوم واحد؟

- سُرقت؟ أنا؟ آه.. أجل أجل.. لكنها حادثة قديمة ومرت عليها سنوات طويلة حتى كدت أنساها.

- بصراحة، يدفعني الفضول لأعرف تلك الحادثة الغريبة التي يتحول فيها فعل إجرامي إلى مصدر للضحك والفكاهة.

- هذا لأني أخطأت وأخبرت عمك بذلك، وكلما ألتقيه يذكرني بهذه الحادثة وكأن الزمن توقف عندها، سأخبرك لكن عدني بأن لا تضحك عليّ في كل مرة نلتقي فيها.

- أعدك.

- إذاً إسمع. قالت السيدة خوليتا وراحت تقص حكايتها:

كان زوجي السابق لا يطيق السياسة ولا يعير انتباهاً إلى ما تقوله الجرائد أو الأخبار، لكنه ذات يوم جاء من عمله غاضباً وأخذ يشتم الحكومة بسبب غلاء المعيشة وانعدام فرص العمل. فوجئت بذلك وسألته:

- تبدو على غير عادتك ماذا أصابك؟

أجاب:

- يجب أن أبحث عن دخل إضافي.

توقعت أن بحثه هذا سوف يطول لكنه في اليوم التالي وجد وظيفة جديدة على الرغم من وجود آلاف الشباب المؤهلين العاطلين عن العمل. سألته عن طبيعة عمله الجديد فأجاب:

- وظيفة إدارية تتعلق بقضايا حسابية أيضاً في مكتب عقاري.

- وهل ستتمكن من التوفيق بين عملك في البنك ووظيفتك الجديدة والمنزل؟.

- بالطبع، بالطبع يا عزيزتي.

مرت الأشهر ولم أعد أرى زوجي إلا في منتصف الليل، ونادراً ما كان يقضي عطلة نهاية الأسبوع في المنزل مع ابنتيه ومعي. طلبت منه رقم هاتف المكتب العقاري تحسباً لأي ظرف طارئ فرفض وأقنعني أن أتصل به على رقم هاتفه الخليوي عند الحاجة، وبالمصادفة، بينما كنت أغسل الملابس عثرت في جيب قميصه على وصل إيداع بنكي تحت رقم حساب المكتب العقاري وحفظت عن ظهر قلب رقم الهاتف المسجل على الوصل.

ذات يوم توجهت إلى السوق لأشتري بعض حاجيات المنزل وقبل أن أنزل من السيارة صوَّب شاب لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره مسدساً إلى رأسي وصاح بلهجة آمرة أن أخرج من السيارة على الفور، أصابتني صدمة عصبية وصرت أتحرك في مكاني كالمجنونة فجرَّني من ذراعي وألقاني أرضاً بينما جلس شاب آخر على كرسي القيادة وأخذ يحث صديقه على الإسراع والدخول إلى السيارة وانطلقا كسهم يمزق الريح، وبقيت أنا مرمية على الأرض كخرقة مهملة.

اتصلت بزوجي على رقم هاتفه الخليوي وكانت يدي ترتجف من الخوف والعجز والاختناق والغضب، لكن جهازه كان خارج التغطية، اتصلت مرتين، ثلاث، عشر مرات لكن دون جدوى، فتذكرت رقم هاتف المكتب العقاري واتصلت، ردت عليّ امرأة فقلت لها صارخةً:

-أعطني زوجي أريد أن أكلمه.

تأخرت المرأة عن الإجابة وصرت أسمع أصواتاً تتحدث بهمس وبعد لحظات رد زوجي عليَّ وقال:

- لا داعي للعصبية ودعينا نتكلم كأشخاص ناضجين، صدقيني كنت سأخبرك منذ شهور لكن لم تسمح الفرصة أو بالأحرى لم أجد الطريقة المناسبة..إذا أردت أن نبدأ بمعاملة الطلاق منذ الآن فأنا على كامل الاستعداد...أرجوك أن تتمالكي أعصابك ولا حاجة للفضائح.

قطعت الاتصال على الفور ولم أخبره عن حادثة السرقة، وفجأة لبستني شخصية جديدة مشبعة بالتفاؤل والفرح والثقة، توجهت إلى مخفر الشرطة لتسجيل محضر بحادثة السرقة وإلى شركة التأمين وانطلقت بعد ذلك مسرعة إلى المنزل، وعندما وصلت لم أنتبه إلى ثيابي المتسخة ووجهي المضطرب وشعري الأشعث فصاحت ابنتاي بتعجب وبدهشة:

- ماما ماما ماذا حدث لك؟

أجبت:

- اليوم سُرقت سيارتي وكذلك زوجي.

-10-

لم يكن العمل في مكتب الحزب معقداً كما ظن أيوب وكان كل ما نسجه خياله من قبل عن صعوبة العمل وعدم الانسجام فيه مجرد حالة درامية لا أساس لها أنتجها الفراغ وقلة تجربته، فانقطعت عندما انقطعت أسبابها، وشيئاً فشيئاً صار يمارس دوره هناك على أكمل وجه ويتعرف على وجوه أولئك الرفاق الذين سمع بأسمائهم وقرأ كتاباتهم.

- كتباتهم؟ وهل توافق أنت على ما يكتبون؟ سأل الأستاذ جمال.

- أوافق كل من يكتب عن الحرية وعن الديمقراطية. أجاب أيوب.

- لكنهم يعرفونها على أنها أهداف بذاتها وليست نتائج.

- وهل يوجد فرق برأيك؟

- بالطبع يوجد فرق! هناك العديد والعديد من الحكومات الديمقراطية إلا أن ديمقراطياتها تلك مصابة بعجز ملحوظ بسبب رداءة الجودة المؤسسية في أنظمتها..... القانون وحده يا أيوب الذي يحرر حين تقمعنا الحرية وتقمعنا الديمقراطية في كثير من الأحيان.

هكذا بدأت معرفة أيوب بالأستاذ جمال الذي على الرغم من لباقته وحسن حضوره كان بقية الرفاق يرونه بعين مختلفة، وكان لكل واحد منهم رأيه الخاص:

- يا رفيق أيوب لو كان والدي غنياً كوالد الأستاذ جمال لما وجدتني هنا بينكم.

- أكثر ما يعجبني فيه معرفته باللغات الأجنبية أما البقية فلا فائدة منه.

- ياروحي على المرأة التي عنده، حقيقة أحسده على زوجته.

- كل ما يفكر فيه الأستاذ جمال تفكير خيالي. ما تعلمه في الخارج شيء وما هو عليه واقعنا شيء آخر.

تجرأ أيوب مرة وسأله:

- ما هي مشكلتك بالضبط مع الرفاق.

- لا أعرف.

- ألا تشعر أنهم يتجنّبون الحوار معك.

- ربما.

- هل لأنك لا تشبههم ؟

- على العكس تماماً أنا رفيق مثلهم في الحزب أعمل كما يعملون وأجتمع كما يجتمعون وأدفع الاشتراكات كما يدفعون.

- إذاً ما السبب؟.

- ربما لأني لا أفكر كما يفكرون.

وفي يوم بارد حيث الطيور تهاجر إلى سماء دافئة قام الأستاذ جمال بدعوة أيوب إلى زيارته.

- هذا أيوب الذي حدثتك عنه.

- تشرفنا .أجابت زوجته راسمة ابتسامة رقيقة معلنة سلفاً عن شخصية رقيقة ومتفردة.

- البيت هادئ كما ترى يا أيوب لكن لا يخلو من بعض الاضطرابات. أردف الأستاذ جمال.

- وماذا تقصد ببعض الاضطرابات؟ سألت زوجته مهاجمة.

- لا شيء... لا شيء يا زوجتي العزيزة.

- طبعاً لا شيء.. دائماً تتحامل عليَّ لكنك لا تستطيع العيش من دوني. أم أنني مخطئة؟

طبع الأستاذ جمال قبلة على خد زوجته وقال: أفضل الموت على أن أعيش من غيرك لحظة واحدة.

- لا أملك أدنى شك بذلك.

- لو أعلم من أين تستمد المرأة ثقتها بنفسها!. قال الأستاذ جمال ثم سأل أيوب: وهل والدتك واثقة من نفسها كزوجتي؟.

- أمي توفيت منذ زمن بعيد. أجاب أيوب.

- أنا آسف لم أعرف. رحمة الله عليها.

مسحت السيدة نوال بيدها على شعر أيوب وقالت:

- أرجو أن تعتبرني كوالدتك وأن تعتبر هذا البيت بيتك الثاني.

- أشكرك من كل قلبي.

سكب الأستاذ جمال كأسي نبيذ واحدة له وواحدة لأيوب وقال:

- هل تعرف يا أيوب أنني منذ ثلاثين عاماً لم أغير عادتي.

- أية عادة؟

- شرب النبيذ.

- يتفق البعض كما أسمع على أن كأساً واحدة في اليوم تساعد القلب في أداء مهمته بشكل جيد.

- هذا صحيح. لكنه لا ينطبق على جمال، فعندما يبدأ بالشرب ينسى عد الكؤوس. قالت السيدة نوال: ثم وثبت كغزال سمع توّاً خطوات صائده. أستأذن منكما الآن فالمسلسل سيبدأ بعد قليل. هل أعد لكما شيئاً؟

- اسألي أيوب أنا سعيد مع نبيذي.

- لا حاجة لأن تتعبي نفسك.

- المسلسل الذي أتابعه هو مسلسل مكسيكي يحمل الكثير من الغموض والعلاقات غير المنطقية، فكلما خمنت أن حبكته وصلت إلى النهاية تعقدت الأحداث وبدأت حبكة جديدة ومختلفة في تطوراتها. قالت السيدة نوال وكأنها طفلة صغيرة تتحدث عن دميتها المفضلة.

- كل المسلسلات المكسيكية متشابهة. قال زوجها ثم تابع: الفتاة الفقيرة سيتزوجها الشاب الغني.

نظرت السيدة نوال إلى أيوب وأخذت تميل برأسها معاتبة ثم قالت:

- زوجي لا يعجبه العجب.

وصلت المضيفة إلى جانب أيوب، توقفت وسألته عن المشروب الذي يفضله ثم انشغلت في تقديم طعام الغداء إلا أن أيوب اعتذر وظل ينظر إلى النافذة بعينين تجولان في عوالم أخرى كمن يبحث عن شخص ضاع منه.

- هل أثقل رأسك كأس النبيذ الذي شربته؟

- لا أبداً..

- إذاً ماذا أصابك تبدو مضطرباً بعض الشيء.

- يراودني دائماً شعور بأني أحتال على نفسي ولا أدري ما العمل.

- تحتال على نفسك؟ كيف؟

- اعتقال الرفيق جهاد فتح لي باب غرفة مظلمة لا أدري ماذا يوجد في داخلها.

- سمعت عن اعتقاله وسمعت أيضاً أنه خرج من السجن.

- أجل خرج وسافر، وهذا ما يؤلمني فقد شبه بعض الرفاق في مدينتي سفره بالخريف.. انهزام الشجر قبل مجيء الشتاء، لكن حتى الآن لا أعرف عن أي انهزام يتكلمون..... حين يتحول الإنسان في قريته أو مدينته إلى فأر تجارب يراقب الآخرون مشيته ويراقبون صوته ويراقبون أفكاره ويتهمونه بأنه عدوهم طالما لا يفكر مثلهم فمن الخطأ اعتبار رحيله انهزاماً.

- أعتقد يا أيوب أننا لا نزال نجهل العمل السياسي حتى أننا كأحزاب سياسية لم نعط لأنفسنا الوقت الكافي من أجل أن نعيد تطوير مفاهيمنا كي تتوافق مع متطلبات العصر الجديد، وقد يكون هذا هو الانهزام الحقيقي الذي تتكلم عنه، لقد تعود المواطن أن يرى الدولة على أنها تركيبة مجردة لا تنتمي إليه بل إنها مكسب حصري من مكاسب الحكومة، فهمش نفسه أولاً ومن ثم همشته الحكومة وبذلك نمّى فيه غيابه هذا العداء والرفض للسياسة والسياسيين.

المواطن يجب أن يتكامل مع الحياة السياسية وذلك من خلال مطالبته الدائمة بتحقيق سياسة الدولة حيث كل حكومة جديدة تستلم السلطة تقوم بمواصلة ما انتهت إليه الحكومة السابقة بصرف النظر عن الاختلاف الإيديولوجي بينهما.

جاءت السيدة نوال ووقفت إلى جانب الأستاذ جمال واضعة يدها على كتفه. سألها وهو ينظر إلى أيوب بعين ماكرة.

- ما هي آخر الأخبار؟ فأجابت وبدأ وجهها كأنه مستودع لكل معاني الدهشة والمجهول:

- دُعيت البطلة إلى الحفلة التي دُعي إليها الشاب الذي تحبه لكن لسوء الحظ لم يلتقيا وانتهت الحلقة.

- لا تقلقي هذا فقط للتشويق، في الحلقة القادمة سيلتقيان اطمئني.

التقطت من يده كأس النبيذ شربت منه رشفة ثم أجابت:

- أعرف أنك تسخر مني. على كلٍ لن أناقشك، سأذهب لأنام.

نظر أيوب إلى الساعة فوجدها تشير إلى الحادية عشرة فقال: استأذن منكما الآن لقد تأخر الوقت.

أوصله الأستاذ جمال بسيارته إلى مكتب الحزب حيث كان ينام، وعند الباب قال له:

- وأنت، ألا تفكر بأن تلتقي التي تحبها.

أجاب أيوب وهو يضع المفتاح في الباب:

- في الحلقة القادمة... من يدري.

-11-

حل المساء وتوقفت حركة الزبائن فطلب أيوب من عماله إدخال البضائع المعروضة خارجاً والشروع بإغلاق المتجر، ولم ينته بعد من توجيه التعليمات لهم حتى أحس بيد تمسك مؤخرته فقفز كالمجنون.

- إهدأ، إهدأ قالت روسا، ولم تستطع أن توقف ضحكتها.

- ماذا جرى لك؟ وما هذا التصرف الغريب؟

- أردت مداعبتك لا أكثر ولا أقل.

- وهل تداعبون الرجال هنا بمثل هذه الطريقة؟

- اعتقدت بأنك رومانسي، لم أتوقع منك مثل ردة الفعل هذه. قالت وهي تعانقه.

- يعني إما أن تمسكي بمؤخرتي أو لا أكون رومانسياً.

- هل غضبت؟

- طبعاً غضبت.

- أنا آسفة. على كل حال لم تقل لي ما هي مشاريعك هذه الليلة.

- لا شيء! سأكون في المنزل كالعادة مع زوجة عمي.

- ما رأيك لو نذهب إلى الديسكو تيك.

- ومن قال لك إنني أُجيد الرقص.

- سأعلمك.

- لست معتاداً على السهر.

- سوف أقوم بتعليمك، ثم غداً يوم الأحد. صمتت كأنها تذكرت شيئاً ثم أضافت: وسأعلمك أيضاً كيف تعامل المرأة في السرير.

- هل تسخرين مني؟

- لا أبداً.. لكن أعتقد بأنك تحتاج إلى إعادة تشكيل، فأنت لا تزال عبارة عن مادة خام.

- مادة خام؟

- أعني أنك طحين لكنك لست خبزاً. سأتصل بك ليلاً.

ولم تتأخر روسا بالاتصال ولم يتأخر أيوب عن ملاقاتها لكنه حين ودع السيدة عائدة وهو يهمّ بالرحيل، لاحظ بطرف عينه أنها ظلت واقفة على الباب تتابع خطواته التي بدأت العتمة تمحوها. عاد أدراجه وقال مواسياً:

- تعرفين تماماً أني لست مولعاً بالسهر، فما رأيك بأن ألغي الموعد؟

أجابت بحنان يشبه حنان أمه :

- عش حياتك يا بني، وانتبه لنفسك، فليل فنزويلا لا يشبه ليل مدينتنا.

كان صوت الموسيقى في الديسكوتيك يشبه صوت إقلاع الطائرات... عنيفاً وهائجاً. جلسا إلى طاولة قريبة من البار، شربت روسا كأس بيرة ثم خطفت يد أيوب وقادته بين الذين يرقصون.

بدأ جسدها يميل كأفعى بينما ظل جسد أيوب متصلباً كجذع شجرة يابسة، خجل من نفسه وأشار إليها بالرجوع ثانية والجلوس. حاولت أن تمنعه لكن دون جدوى، وحين وصل إلى الطاولة انتبه أنه وصل وحيداً .

كانت روسا تنتقل من يد إلى يد، ترقص بصخب وكأن تلك الليلة ليلتها الأخيرة.

نظر أيوب حوله فوقعت عيناه على بعض الفتيات يبتسمن له. فقال في نفسه: وما نفع ذلك ! لحم هذا السمك قاس.

اجتاز الباب الخارجي من أجل أن يستنشق هواء نقياً ويهرب من صوت الموسيقى الذي بات على وشك أن يحطم رأسه، أشعل سيجارة وأخذ يمشي بخطوات قصيرة ورتيبة. فجأة شعر بيد تزحف على كتفه، التفت فرأى روسا تقف أمامه كحورية خرجت توّاً من البحر، فقد بلل العرق وجهها المحمر وسال بوهن في ساقية الخط الذي يفصل بين نهديها. تمنى أن يضاجعها هنا... الآن.... تحت ضوء القمر.

- هل تشتهيني؟ سألت.

- كيف عرفت؟

- أنا ساحرة؟ أجابت ثم أخذت يده وراحت تجره ببطء باتجاه الساحة المخصصة لوقوف السيارات، وصار يمشي وراءها مرغماً كأنه مقاد بسلاسل .اتكأت على سيارة وقالت:

- لا تخجل من ضوء القمر، أطلق العنان لفنتازيتك، ودع جنونك يتكلم.....

اقترب منها وغرز أسنانه في جسدها وصار ينهش ويعلك اللحم القاسي حتى أصبح لقمة مستساغة. صرخت، اهتاجت، طوقت جسده بيدين من حديد ثم سقطت كأن مساً كهربائياً أصابها.

قالت وهي تلهث: وأنت أيضاً صرت ساحراً.

مشيا من غير هدف، ربما كانا يبحثان عن شيء ليشرباه أو عن مكان لا يشبه المنزل يجلسان فيه للتحدث.

وصلا إلى كشك صغير يتوسط تقاطع شارعين. طلب أيوب قهوة وطلبت روسا بيرة وجلسا على مقعد قبالته.

- حدثيني عنك. قال ورمى ببصره إلى القمر الذي يسافر وحيداً وعلى مهل في سماء حالكة.

- ماذا تريد أن تعرف؟ أعتقد إنك صرت تعرفني أكثر مما أعرف نفسي.

- أقصد حدثيني عن ماضيك، عن حياتك، عن أي شيء.

- وهل تعتقد أني أشبه امرأة مسنة لم يبق لها سوى ذكريات مبعثرة هنا وهناك لتتحدث عنها أم أنك تراني قد اعتزلت الحياة! ثم لمعلوماتك، الحنين للماضي ليس مهنتي.. مهنتي الحقيقية هي العمل.. العمل اليومي.

- مهنة كل الناس هي العمل اليومي.

- طبعاً لكن بالنسبة إليَّ الأمر مختلف.

- ولماذا مختلف؟

- لأن الواقع قدم لي شكله النهائي ولم يسأل عن رأيي أو عن رغبتي، ووضع الجزرة أمام عيني ودفعني للحاق بها.

- طالما لم يسألك فلماذا لا تفكرين أنت بتغيير قانون اللعبة.

- لا مجال لدي للتفكير. قد أكون مخطئة في ركضي المستمر حسب وجهة نظرك لكني على يقين كامل بأنني سوف أهلك إذا توقفت يوماً ما.

- تريدين أن تقنعيني بأنك شقية؟

- على العكس. أنا أسعد امرأة في العالم..... ألا يكفي أنني تعرفت إليك.

- أنت مختلفة لا تشبهين أحداً.

- أنا واقعية.

- هل أحببت؟

- أحببت وعرفت الحب مرة واحدة فقط.

- وماذا حصل.

- قلت لك لست امرأة تنظر إلى الوراء. أجابت ثم نهضت من مكانها تفتش على سلة مهملات لكي تلقي زجاجة البيرة. ثم اقتربت من أيوب وأردفت:

- ألم يكن من الأفضل لو بقينا نرقص... أمسكته من يده وطلبت منه أن يسير.

- إلى أين؟ لا أريد العودة إلى الديسكو تيك.

- لن نعود، سنواصل المسير ليس أكثر.

- لماذا لا تريدين الحديث عن نفسك؟ هل تخافين من الذكريات؟

- أنا لا أخاف منها، على العكس أنا مسؤولة عن كامل ذكرياتي لأنني أعتقد أن العودة إلى تصفح الماضي تحتاج منا مزيداً من المسؤولية بالقدر نفسه الذي يحتاجه منا تطلعنا إلى المستقبل؛ إن الذكريات كانت ولا تزال شباكاً يطل على واد مليء بالماء والربيع نفتحه من وقت إلى آخر للتمتع باستنشاق الهواء العليل أو العَدْوِ بفرح تحت سماء زرقاء، إلا أنها في الوقت نفسه قد تظهر كشريط سينمائي نرى فيه ما كنا قد عانيناه في السابق من فشل وعجز ومحن وضعف ووهن فتقوي لدينا من غير أن ندري الرغبة في الانتقام، وتدفعنا إلى إيقاظ كل أشكال الكراهية والفردية، وتوقف

محاولتنا في بناء مجتمع يقوم على التسامح والمحبة وقبول الآخر ليحولنا إلى أعداء أنفسنا وأعداء الآخر. أنا لا أخاف من ذكرياتي ولا أكبحها، وفي الوقت نفسه لا أستطيع منع تدفقها، ودائماً أتحمل مسؤوليتها في كلتا الحالتين حين تجيئ لتفرحني وحين تجيء لتؤذيني.

ألقت روسا برأسها على كتف أيوب وأحاطت خاصرته بيديها الاثنتين، وبينما كانا يمشيان على مهل أخذت تحدثه عن حياتها:

- كانت عينا أمي زرقاوين وبشرتها بيضاء كالحليب، أما والدي فكانت عيناه بنيتين ولون بشرته كلون التراب، وكنت متعلقة به بشكل جنوني.. وأذكر أنه حين فارق الحياة بقيت جالسة على طاولة قبالة جثمانه حتى الصباح، وعندما أخذوه إلى مثواه الأخير لم أنقطع عن زيارة قبره في الليل، وكنت أتخيل أنه سيقوم من جديد وسأرافقه إلى المنزل، وعندما عرف راهب قريتنا بقصتي منعني بالقوة من زيارة قبر والدي.

حاولت أمي وقتذاك أن تخرجني من محنتي فأرسلتني إلى بيت أختها في العاصمة، إلا أن خالتي لم تستطع أن تعتني بي، فقد كان لديها خمسة أفواه تريد أن تطعمهم، وقدمتني إلى منزل سيد ثري اسمه روبين للعمل عنده محاولة التنصل من المسؤولية التي وقعت عليها بشكل طارئ.

أذكر ما قالته ابنته الكبرى لخالتي يومذاك بالحرف الواحد.

- لا أستطيع أن أقبلها، عمرها لا يتجاوز العاشرة. لا تزال تحت السن القانوني، لا أستطيع قبولها على الإطلاق.

- إنها فتاة أمينة ونشيطة.

- المسألة ليست في نزاهتها أو نشاطها بل في عمرها.

- أرجوك يا سيدة لاورا ساعديني.

- مستحيل.. مستحيل.

- لقد أرسلتها أمها لأعتني بها لكنني بالكاد أطعم أولادي..أرجوك حاولي أن تجدي حلاً.

- ولنفرض أني قبلت وعرف أحدهم بالأمر وفشى بسرها! هل تعرفين ماذا سيحصل؟!! سنذهب جميعاً إلى المحكمة.

- لكن.......

صمتت السيدة لاورا لوهلة ومن ثم سألت خالتي:

- هل أحضرت ثيابها.

- تلك التي عليها.

- حسناً... حسناً...لكن حافظي على سرّنا، إياك أن تخبري أحداً.

- بالتأكيد. أجابت خالتي بفرح ثم ودعتني وغادرت.

كان البيت واسعاً جداً يحتوي على ثماني غرف، وكنا أربع عاملات تقوم كل واحدة منا بالدور المفروض عليها، وتركز دوري على تقديم وجبات الطعام الثلاث للسيد روبين .

حين رأيته لأول مرة خفت منه وبقيت مسمرة في مكاني لا أستطيع الحراك.

رجل ضخم مشلول يجلس على كرسي متحرك لا يتكلم، وإذا أراد أن ينطق بشيء فلا يخرج من فمه سوى همهمة متهدجة غير واضحة، وأول مرة قدمت له وجبة فطور حرصت على أن لا تقع عيناي على عينيه.

لكن مع مرور الأيام أصبحت أحبه وأشفق عليه خصوصاً عندما بدأت أشاهد بأم عيني كيف كانت ابنته الصغرى تضربه وقت ما تشاء وتركل رجليه اللتين تعبتا من العمل على مدى السنين وخلدتا إلى نوم يشبه الموت، وكانت توبخه وتشتمه دائماً:

- إلى متى ستظل حياً. مت أريد أن أرثك، أريد أن أعيش حياتي خارج هذا البيت الحقير. مت..أكرهك أيها العجوز المقيت.

مرت الشهور سريعاً، وبدأت أنسجم مع عملي على غير ما توقعت، ويعود السبب في ذلك إلى علاقتي بالسيد روبين التي أخذت تزداد عمقاً حتى صرنا أكثر من صديقين.

قلت له ذات يوم:

- أنت كوالدي.

- إيهه.

- أحبك بقدر ما أحببته.

- إيهه.

- انتظرته طويلاً لكنه لم يعد.

- ....

- هل تعتقد أنه سيعود.

- ......

- إسمع ! خطرت على بالي فكرة. لماذا لا نمشي.

- إيههه.. إيههه إيههه.

- لا تغضب. أنا لا أمزح، قم، دعنا نجرب.

- إيههه إيههه إيههه..

- لا تخف... ثق بي..سأساعدك.

أسند السيد روبين يده إلى كتفي واتكأ باليد الثانية على عصاه. لكنه لم يتمكن من النهوض، كانت محاولاتنا المتكررة تفشل دائماً لكن ذات يوم مشينا خمس خطوات فبكيت من الفرح ورحت أرقص كالمجنونة، لقد عرفت لأول مرة في حياتي معنى الانتصار، ربما كان الانتصار على الموت الذي خطف والدي أو ربما انتصار الإرادة الدفينة التي لم تتعرف على شكلها في جسد السيد روبين .

صمتت روسا للحظة ثم تمتمت:

- آه تذكرت الآن مواجهتي لإيفانخلينا؛ سأخبرك ما حدث معي بالتفصيل لكن أرجوك لا تسخر مني.... مفهوم.

- بالطبع لن أسخر منك. أجاب أيوب. ثم سأل: ومن هي إيفانخلينا؟

- أين عقلك؟ إيفانخلينا ابنة السيد روبين الصغرى التي كانت تشتمه دائماً. هل نعست؟ أم مللت؟

- تذكرت، تذكرت.

- بالحقيقة أخجل أحياناً من نفسي وأقول كيف استطاعت طفلة في الحادية عشرة من عمرها أن تقوم بذلك، صدقني يا أيوب ما كنت أتصور وجود أناس يكرهون آباءهم كما كانت إيفانخلينا تكره والدها.

- يبدو أن ما حدث معك ترك أثراً بالغاً في نفسك. هل طردتك من عملك؟

- لا.

- ماذا حصل إذاً ؟.

- رأيتها تخون خطيبها.

- رأيتهما بعينيك! كيف؟ أخبريني.

- الآن استيقظت من غفوتك وصرت تسمعني باهتمام؟ يبدو أنك مثل النساء تحب النميمة.

- تعلمي تماماً أنني أكره النميمة لكنني مندهش لقوة شخصيتك.

- قوة شخصيتي؟ إذاً ستشبهني بالفتاة الحديدية عندما أقص عليك قصة تواطؤي مع شقيقتي ماري لوس! آه يا أيوب لماذا فتحت أبواب ذكرياتي على مصراعيها.. قالت روسا متنهدة ثم استدركت: ما علينا.. إسمع ولا تنم. مر أسبوع متعب جداً قضيناه في التحضير لحفلة زواج إيفانخلينا، كان خطيبها سيزار نحيفاً طويل القامة يشبه عصا مكنسة، يأتي كل يوم وقت الظهيرة ويغادر في منتصف الليل. وعلمت أنه سليل عائلة غنية وأن إيفانخلينا وافقت على زواجها منه ليس حباً بشخصه بل بثروته.

وذات ليلة وبعد أن ودعنا خطيبها كعادته وغادر، خلد الجميع إلى النوم أما أنا فاشتد بي الأرق وبقيت مستيقظة، فجأة سمعت باب الصالة يُفتح بحذر، حسبت أن لصاً أو مجموعة لصوص دخلوا المنزل لسرقته ورحت سراً أستطلع الأمر ورأيت إيفانخلينا واقفة مع رجل غريب لم أره من قبل خلال إقامتي في منزلهم، استلقيا على كنبة في زاوية الصالة، وبعد مداعبات بينهما تعرت إيفانخيلينا.

سألت بأعلى صوتي:

- من هنا؟

- أجابت إيفانخيلينا : لا تصرخي...هذا أنا عودي إلى غرفتك.

- ومن معك؟

- لا أحد.

- لقد رأيته...قولي من معك وإلا أشعلت الضوء وأيقظت أختك وزوجها.

- سأشرح لك فيما بعد.

في صباح اليوم التالي مرت إيفانخيلينا من أمامي وكأن شيئاً لم يحدث. ناديتها فوقفت دون أن تستدير.

- أظن أنك نسيت شيئاً هاماً.

- وماذا نسيت؟.

- أن تشرحي لي عن الحادثة الغريبة التي وقعت ليلة البارحة.

- هذا ليس من شأنك.

- أعرف أنه ليس من شأني.

- إذاً لماذا تسألينني؟

- ومن أسأل يا ترى؟ هل أسأل خطيبك الطويل والنحيف؟.

- هل جننت؟.

- لا تقلقي، لن أفشي سرك لأحد لكن إذا ركلت والدك مرة أخرى فسأخبر كل الناس.

نظرت إيفانخيلينا إلي بطرف عينيها كذئبة جريحة وأردفت وهي تعدو:

- اتفقنا..اتفقنا.

شرعت الشمس ببناء أعمدة نور، وتناثرت رائحة الصباح كرائحة أزهار الزيزفون كأن عملاقاً خرافياً كسر توّاً على قارعة الطريق، زجاجة عطر مسحورة، ومن غير أن يدركا لاح أمامهما منزل روسا.

- وصلنا. يا إلهي لا أصدق أننا مشينا كل تلك المسافة. قالت روسا.

- وما هي حكايتك مع شقيقتك؟ سأل أيوب.

- أنت لا تنسى شيئاً على ما أظن.. قالت روسا وهي تفتح الباب مهرولة نحو الداخل ثم أضافت: إسمح لي أولاً أن أستحم فلم أعد أطيق العرق على جسدي، أشعر بثقل لزوجته.

أغلق أيوب الباب وراءه واتجه نحو المطبخ لتحضير القهوة وأدار المذياع يفتش على أغنية تنسجم موسيقاها مع إطلالة الصباح.

وخرجت روسا تلف رأسها بمنشفة وجلست على الأريكة ، جاء أيوب بالقهوة ووضعها على طاولة صغيرة. قال:

- أكاد لا أصدق عبثك.

- عندما لا يملك الإنسان شيئاً ليخسره يتحول إلى هارب من العدالة أو باحث عن تحقيقها.

- وأنت أين تجدين نفسك؟

- ألم أقل لك بأن الواقع قدم لي شكله النهائي ولم يسأل عن رأيي.

- لم تجيبي عن سؤالي؟

- أنا الاثنان معاً.

- وهل يعقل ذلك؟

- لكن أليس حرياً بك أن تسألني متى أتحرر من أحدهما! من منا نبي يا أيوب؟ أم تظن نفسك معصوماً عن الخطأ؟ بصراحة لا أملك أدنى فكرة عن بيئتكم أو عن نسيجكم الاجتماعي لكني متأكدة أن شرقكم لم يعد وسطاً صالحاً لولادة الرسل، والإنسان هناك محكوم مثلي أيضاً بأن يتحرر من أحدهما.

بدا على وجه روسا الحنق أو هكذا تخيل أيوب، وشعر بعدم الارتياح وخمن أنه اجتاز من غير إذن مسبق عتبة منطقة محرمة؛ أشعل سيجارته ودخل المطبخ لينشغل أو يشغل نفسه بتحضير السندويش، فقد خشي أن يستأذن ويغادر في تلك اللحظة ويدع روسا سبية لذكريات تتلاعب وتهزأ منها.

أحس بوقع خطاها، وقفت بجانبه حاملة فنجان قهوتها كأنها تلتمس سبيل الطمأنينة وتابعت قائلةً:

- حدث أن دعت السيدة لاورا أصدقاءها للاحتفال بعيد ميلادها، وجاء بصحبة أمه صبي في الخامسة عشرة من عمره جميل ولبق وخجول اسمه غوستافو.

لم أنتظر منه المبادرة بل على العكس تقدمت أنا وعرفته على نفسي. بدأنا نتحدث ونضحك ونلعب، وكل نهاية أسبوع كان يصر على أمه من أجل أن تصطحبه لزيارتنا. وكنت أخبر السيد روبين بكل كلمة أقولها لغوستافو أو يقولها لي، واعترفت له أيضاً أننا اتفقنا على الزواج عندما نكبر.

وحدث أيضاً أن قررت السيدة لورا السفر إلى جزيرة مارغاريتا مع والدة غوستافو وبعض الأصدقاء وأرادت أن تصطحبني معها وطلبت مني تجهيز الأغراض اللازمة للسفر فقلت لها:

- أذهب معك بشرط واحد.

- وما هو؟ سألت.

- أن يرافقنا السيد روبين.فأجابت:

- هل فقدت صوابك أم أصاب عقلك مكروه؟! الإنسان يذهب إلى البحر من أجل الراحة وطلباً للهدوء... أصحبك معي لتساعديني لأنني لا أريد الالتزام بشيء أو القيام بأي عمل. فما الذي تطلبينه مني أن أكون مسؤولة عن والدي أيضاً وقت راحتي؟

- سأقوم بخدمتك على أكمل وجه، ووالدك لن يزعجك...أنا سأتحمل مسؤوليته. أعدك بذلك.

- وإن لم تتمكني من القيام بذلك؟! سأرجعك إلى منزل خالتك.

- لا تقلقي يا سيدة لاورا، ثقي بي.

سافرنا إلى البحر...أجل سافرنا وساعدني غوستافو في الاعتناء بالسيد روبين، استطعنا أن ندفع كرسيه فوق الرمال باتجاه الشاطئ على الرغم من صعوبة ذلك. أمضينا أسبوعاً كاملاً حملت أيامه

فرحاً لا يشبه أي فرح ويصعب اختزاله بكلمة أو بعبارة، وحين عدنا كان البؤس بانتظاري.

جاء أخي الكبير بعد سنة ليزورني، لم يكن نتيجة قلقه أو عطفه علي بل جاء ليطلب من السيدة لاورا أن تبدأ بإعطائه راتبي الشهري.

- وماذا تقصد بالراتب الشهري؟ سألته السيدة لورا وظلت واقفة وسط مدخل المنزل.

- يا سيدة لاورا. الحياة تغيرت، لا أحد يعمل مجاناً عند أحد. أعتقد أن من حق أختي أن تتقاضى راتباً شهرياً إزاء العمل الذي تقوم به.

- أختك نرعاها على أحسن وجه.

- لكنها تعمل.

- لا ننكر ذلك، نحن لا نستغل تعب أحد. مالها محفوظ.

- إذاً أعطني إياه.

- إنه مالها وتعبها... كيف ستأخذه منها.

- أنا بحاجة إليه.

- إذا كنت تحتاج المال فابحث عنه. هنا لا يوجد مال ولسنا جمعية خيرية .

- لا أفهم كلامك. قلت لك إنني أريد المال.

- وهل أتكلم لغة غريبة؟! سنة كاملة لم تسأل عن أختك، والآن جئت لتطالب بما جمعته. هيا انصرف. لا أريد أن أرى وجهك بعد الآن.

- لكن يا سيدة لاورا أعتقد أن وجهي بالنسبة إليك سيظل أفضل من وجه موظف البوليس. أردف أخي بهدوء يشبه هدوء الخراف.

- أنت حقير ونذل. أجابت السيدة لاورا بشكل هستيري ثم أحضرت المال ورمته أمامه كمن يرمي عظمة لكلب وأغلقت الباب في وجهه.

لم يخجل أخي الكبير من نفسه بل ظل على مدى سنتين يأتي كل آخر شهر يقف أمام الباب يطلب عظمته وينصرف، وزارتني شقيقتي ماري لوس التي تكبرني بست سنوات والتي تتمتع بجمال يفوق الوصف، كانت تشبه أمي، بيضاء البشرة وعيناها زرقاوان، ولم يكن أحد يصدق أنها أختي لكن القاسم المشترك الذي يجمعنا هو الصوت... كأننا نملك الحنجرة ذاتها.

عرفت سلفاً أنها تحيك مؤامرة ما وأنها تطلب مساعدتي.

ماذا تريدين؟ سألتها قبل أن تبدأعرض مقدماتها المبتذلة.

- أريد مساعدتك.

- أعرف ألاعيبك واحدة واحدة.أسألك ماذا تريدين؟

- أن تعيشي معي..

- أين؟

- في قصري.

- قصرك؟ وصار لديك قصر!

- أجل. تزوجت رجلاً غنياً طاعناً في السن.

- وما هي المؤامرة التي ستحكينها هذه المرة؟

- ليست مؤامرة إنها خدمة صغيرة فقط.

- ولماذا تتذكرينني الآن؟

- ومتى نسيتك لأتذكرك! أنت تعلمين جيداً علاقتي بك وتعلمين خوفي المستمر عليك.

- قولي كيف أستطيع مساعدتك.

- المشكلة أن زوجي يمضي كل وقته في المنزل ينتقل من غرفته إلى الصالة ومن الصالة إلى الحديقة ومن الحديقة إلى الحمام ومن الحمام إلى غرفته. مللت حياتي، أشعر بالاختناق أريد أن أنطلق، أن أعيش حياتي. وأنت ألم تسأمي من عيشتك هذه؟

- أنا سعيدة بحياتي.

- أنت لست سعيدة. أنت غبية. هل ستبقين على هذه الحال، تعملين وأخوك الكبير يأخذ مالك !.

- لكن لا ينقصني شيء. ثم إن حبي للسيد روبين أهم من أي مال.

- وهل سيدوم روبينك هذا.

- ماذا تقصدين؟

- حين يموت سيرمونك في الشارع كقطة مشردة عندها ستعرفين بالضبط معنى السعادة.... غبية وستظلين غبية....افتحي عينيك الآن، لا أحد في الدنيا يساعدك سوى عقلك ويديك. أخوك يأتي إلى هنا ليأخذ مالك ولا يسأل عن احتياجاتك، فماذا تنتظرين من الغريب. هذا العالم لا يعيش فيه السذج، ألا ترين بعينيك أن كل إنسان لا يتأخر لحظة عن شق أمه إلى نصفين من أجل أن يحصل على شهادة طبيب جراح. غداً سأمر عليك جهزي نفسك، لا أستطيع المكوث أكثر، سائق زوجي ينتظرني.

وفي صباح اليوم التالي غادرت مع أختي منزل السيد روبين... تركت نبتة خضراء زرعتها بيدي وكنت أراها تنمو وتورق، وتركت حباً كان يزحف كطفل يبتسم ويضحك.

لا أدري لماذا وافقت على عرض شقيقتي مع أنني أعلم تماماً أنها شيطانة حقيقية على شكل فتاة جميلة في الثامنة عشرة من عمرها.

على الرغم من انعزال السيد روبيرتو زوج شقيقتي في قصره إلا أنه ظل ملتزماً بعض العادات التي مارسها في السابق.

كان يخرج مع ماري لوس إلى دور السينما وغالباً ما كان يلبي الدعوات الرسمية التي توجه إليه كحضور حفلة افتتاح شركة أو مهرجان. كان يقدم لها كل ما تتمناه أو بالأحرى كان يدفع لها ثمن ما يحتاج من العاطفة والرغبة والجنس واللهو.

كانت لديه عادة خاصة وغريبة، إذ لم يكن يرغب بأن يشاركه أحد سريره حتى زوجته السابقة التي توفيت قبل بضع سنوات كانت تنام في غرفة أخرى، وقام بتركيب جهاز اتصال بين غرفة نومه وغرفة نوم ماري لوس من أجل الحديث معها في حال احتاج شيئاً ما أو رغب في قضاء بعض الوقت معها قبل أن يخلد إلى النوم، واستطاعت ماري لوس الاستفادة من تلك الثغرة واعتبرتها الطريق الوحيد الذي من شأنه أن يقودها نحو عالمها الذي تشتاق إليه وتحيا فيه ومن أجله.

فكرتْ كثيراً وخططتْ كثيراً وفي النهاية قررت اللجوء إلي وذلك نتيجة تشابه صوتينا، وكان دوري في تلك المسرحية يقتصر على استقبال اتصالات السيد روبيرتو في الليل والشروع بتقديم الأعذار وإقناعه بأنني مرهقة أو بأنني مريضة في حين كانت ماري لوس تسافر في ليلها الذي حسبته عبدها المطيع ووثقت به إلى أن جاء يوم أدركتْ فيه أنها ليست وحدها سيدة الليل بل إنه عبد لكثيرين غيرها أيضاً يخدمهم ويطيعهم ويعمل لحسابهم.

حين توفي السيد روبيرتو جاء ابنه يطلب من ماري لوس أن تعود من حيث أتت. لكنها رفضت وقالت له:

- هذا القصر قصري ورثته عن زوجي.

- ومن زوجك؟

- إذا كنت لا تعرف من هو زوجي فلماذا جئت؟ وعن ماذا تبحث؟

- أبحث عن دليل.

- الدليل واضح. لو لم أكن زوجته لما رأيتني هنا.

- القاضي لا يفهم هذا الكلام. يريد صك الزواج.

- أنا زوجة والدك عشت معه واعتنيت به.

- لا يكفي... .القانون يتعامل مع الدلائل والإثباتات. ثم هناك فرق شاسع بين الزوجة والعشيقة.

- ماذا تقصد بكلامك هذا؟

- لقد سمحنا لوالدنا أن يعشق على هواه لكننا لم نكن نسمح له أن يفكر ولو لمرة واحدة بأن يتزوج امرأة مثلك.

- إخرس. أنا أشرف من أمك.

- والدتي لم تخرج يوماً لوحدها في الليل ولم تعرف رجلاً غير والدي. على كل حال تفضلي هذا الظرف. القاضي يملك واحداً مثله...... غداً لا أريد رؤية وجهك هنا.

بعد أن غادر ابن السيد روبيرتو فتحت ماري لوس الظرف ووجدت فيه صورها مع عشاقها في المراقص الليلية وفي المقاهي وفي غرف الفنادق. أعدت حقيبتها وقالت لي:

- جهزي نفسك سنسافر غداً صباحاً إلى قريتنا..فلم يعد لنا مكان هنا.

حين قابلتْ روسا أمها من جديد بعد غياب طال ست سنوات، وجدتها هرمة وبائسة تتذكر شيئاً وتنسى أشياء. عرَفتها عن نفسها فضمتها وقبلتها وبكت إلا أنها بعد دقائق معدودة كانت تسألها عن

روسا ومتى تعود روسا.

وطلبت روسا من شقيقتها بأن ترافقها لزيارة قبر والدهما لكنها اعتذرت بحجة التزامها بموعد مع كارلوس ابن الحارة والذي يعمل في سوبر ماركت .

وعندما عادت إلى المنزل لوحدها من دون مرافقة راهب القرية كما كان يحدث في السابق رأت شقيقتها جالسة إلى جانب نافذة مفتوحة تنتظرها:

- تأخرتِ. قالت ماري لوس.

- تحدثت طويلاً مع والدي. أجابت روسا.

- متى ستعرفين أن الموتى لا يسمعون.

- الموتى يسمعون ويتحدثون ويرون.

- دعي أوهامك الآن جانباً. لقد وجدت لك عملاً.

- أين؟

- في السوبر ماركت الذي يعمل فيه كارلوس.

- وأنت؟

- يا مغفلة تحدثت مع كارلوس من أجلك. لا تقلقي عليّ. أنا لا أفكر بالعمل هنا، هذه القرية غدت صغيرة أمام طموحاتي.

وبعد أقل من شهر تقريباً سافرت ماري لوس وانقطعت أخبارها.

- وهل وافقت على عملك الجديد؟ سأل أيوب.

- وافقت وتزوجت. أجابت روسا واستطردت في حديثها: كان كارلوس منذ صغره يعشق ماري لوس إلا أنها لم تعر الرجال البسطاء والفقراء أي انتباه. وحين اقتنع أنه لا جدوى من حبه لها قرر العيش معي.

أمضينا سنة هادئة نذهب إلى العمل معاً ونعود إلى البيت معاً إلا أنه كان الهدوء قبل العاصفة. طُرد كارلوس من وظيفته في إثر مشاجرة مع رب العمل، ودفعه الفراغ والبطالة إلى عالم المخدرات ليقع فريسة سهلة لإغراءاته.

ربما كان هو نفسه يبحث عن هذا الشكل الجديد من الحياة أو ربما كان هذا الشكل من الحياة يبحث عنه. انقطع الحوار بيني وبينه وانقطعت العلاقة التي تجمعنا كزوج وزوجة وأصبح الخطر والأمان عندي يملكان معنيين مختلفين عن مرادفيهما الحقيقيين.

لقد صرت مع الوقت أرى جلده يتبدل وعيناه تتحولان إلى مغارتين مفتوحتين لطيور الظلام، وانقلبت يداه إلى شراعين ممزقين ومهترئين لقارب محطم ومهجور، وصار يفرض عليّ قوانين غريبة من صناعته وارتجاله ويعاملني كامرأة بلا روح يضربني ويغتصبني.

تحملت في البداية على أمل أن يعود إلى رشده يوماً ما لكنني لم أعد أقوى على الصبر وهجرت البيت وسافرت إلى العاصمة من جديد.

- وهل عدت إلى منزل خالتك؟.

- وكيف عرفت؟

- توقعت.

- رأيتها قد شاخت سريعاً كأن الزمن مر عليها أسرع من المعتاد.

- وهل أقمت مدة طويلة في منزلها؟

- أقمت عندها أسبوعاً واحداً فقط.

- وكيف تدبرت أمورك وتكاليف معيشتك في العاصمة؟!

- لن تصدق إذا أخبرتك!

- أصدق كل ما تقولينه.

- هل تؤمن بالمصادفة؟

- ربما.

- حصلت على فرصة عمل في اليوم الثاني من وصولي إلى العاصمة.

- قال أيوب مبتسماً: هذه ليست مصادفة يا عزيزتي إنه الحظ..الحظ قرع بابك.

- سمها مصادفة سمها حظّاً سمها ما شئت! أجابت روسا ثم أكملت: لكنك لم تسألني كيف حصلت على فرصة العمل؟ وأين؟

- هز أيوب رأسه باستسلام وقال ببطء: وكيف حصلت على فرصة عملك؟ وأين؟

- عند السيد وجيه.

- وجيه؟ عمي؟وكيف وصلت إلى هنا؟ سأل أيوب.

- مصادفة. أقصد حظّاً.

- بدأت تسخرين مني أليس كذلك؟

- ضحكت روسا وقالت:

- ليس بالضبط.

- أنت ماكرة ولا أريد سماع قصة حياتك، إنها مضيعة للوقت. قال أيوب وهو يهم بالانصراف.

التقطت روسا يده وأوقفته معاتبةً:

- دائماً تتصرف مثل طفل صغير وتغتاظ من أي شيء، ثم أنت الذي طلبت مني أن أخبرك عن تفاصيل حياتي أم نسيت.

- لم أنس.. أكملي.

- لا تزال غاضباً.

- لست غاضباً.

- لا أصدقك. قالت ممازحةً. فصاح أيوب:

- أقسم لك إني لست غاضباً، هل ستكملين أم لا؟.

- سأكمل، سأكمل. أجابت روسا وارتسمت على محياها ابتسامة مراوغة تعلن بتواضع مموه تفوقها على خصمها:

- جاء إلى منزل خالتي رجل في الثلاثين من عمره وطلب منها مقابلتي وعرَف عن نفسه بأنه يعمل في شركة تقوم بتوظيف العمال وأن اسمه مارتين.

قابلته وسألته من أين علم بأنني أبحث عن وظيفة، فأجابني بأن الشركة لديها جرد بالأشخاص العاطلين عن العمل. خلت أنه يكذب لكن خالتي كان رأيها مختلفاً ووثقت به. وفي صباح اليوم التالي اتصل بي وطلب مني أن أجهز كامل أغراضي، وأنه سيمر إلى المنزل عند الظهيرة ليصطحبني إلى المطار، وسألته عن طبيعة عملي، فأجابني بأنه يتعلق بإدارة متجر ضخم لبيع الأدوات الكهربائية والمنزلية.

سافرنا وحجز لي في فندق لمدة شهر كامل، وفي اليوم التالي مرّ عليّ وسلمني عنوان المتجر وطلب مني الذهاب لمقابلة السيد وجيه. ذهبت وقابلته وشرحت له أن الشركة التي تقوم بتوظيف العمال أرسلتني للعمل لديه ففوجئت بقوله بأن الشركة لم تتصل به، وأنه لم يسمع بحياته عنها، ومع ذلك وافق على تعييني. عدت إلى الفندق وانتظرت قدوم السيد مارتين لكي أعرف قيمة ديوني للشركة وأتفاهم معه حول كيفية دفعها لكنه لم يأت وانقطعت أخباره منذ ذلك الوقت.

- ربما توفي أو قتل أو أصابه حادث ما. قال أيوب.

- مارتين لم يمت. حدسي يقول لي إني سوف أقابله يوماً وأدفع له ديني. أجابت روسا.

-12-

زار أيوب قريته بعد شهر من الغياب ، بدا له البيت كأنه بيت جديد بل بدا له كل شيء كأنه يراه لأول مرة.. شجرة الكرز.. الشرفة.. حبل الغسيل.. بوابة الحديد السوداء وعينا والده الغامقتان كالنسيان.

- ابن حلال كنا نتكلم عنك. سلمى سلمى.. جاء أيوب: نادى الأستاذ يوسف زوجته وولج مع ابنه إلى داخل المنزل.

- يا أهلاً وسهلاً. قالت سلمى وهي تعانق أيوب.

- المنزل من دونك مهجور، يبدو أن أصدقاءك جعلوك تنسى أهلك. قال الأستاذ يوسف.

- وهل من أخبار عن جهاد؟ سأل أيوب.

- لا جديد يا بني، لا أحد يعرف إلى أين سافر. أجاب والده.

- مسكينة أمه، ذاقت الأمرين، قالت سلمى ثم أضافت: ما إن خرج من السجن حتى سافر ليشعل قلبها مرة أخرى.

- لكن يا خالتي الإنسان محكوم بظروفه الخاصة.

- مهما تكن الظروف من الخطأ أن يترك أمه الأرملة وحيدة. أقلّه يبقى لفترة أطول حتى تشبع من رؤيته. أردفت سلمى ثم تابعت كأنها تذكرت أمراً هاماً: زوجة الأستاذ سهيل غادرت المنزل ولا أحد يعلم إذا كانت سترجع أم لا.

- علمت بذلك. قال أيوب.

- مسكين! هو الآخر ستقتله الوحدة أيضاً.

- ......

- وما السبب برأيك يا بني الذي دفعها لتتخذ مثل ذلك القرار. سأل الأستاذ يوسف.

- أنت تعرف الأستاذ سهيل أكثر مني يا والدي، وتعرف أنه لا يحبذ الكلام حول مشاكله العائلية وأعتقد أنه من الأفضل أن لا يسأله أحد عن الأسباب.أجاب أيوب.

فجأة قرع الجرس ، فتحت سلمى الباب ودعت الضيوف للدخول.

- الآن جاؤوا عندما علموا بقدومك. قال الأستاذ يوسف.

- سنزور والدة جهاد.

- إذاً إشرب القهوة هنا أنت ورفاقك ثم غادروا.

- سنشربها عند أم جهاد. أجاب أيوب وغادر المنزل.

استقبلت والدة جهاد أيوب ورفاقه كما تستقبل الأرض الجافة أول قطرات المطر.

- أهلاً وسهلاً بالأوفياء.

- هل ينقص عليك شي.

- الحمد لله مستورة، أشكركم من كل قلبي، إخوتي يزورونني باستمرار.

نظر أيوب إلى حائط الغرفة فوجد صورة كبيرة لعادل إمام فسأل:

- هذه الصورة لم تكن هنا ! أليس صحيحاً؟

- معك حق. كانت بين أوراق جهاد، أحببت أن أعلقها لأنه كما تعلمون مدى حبه وإعجابه بهذا الفنان. قالت والدة جهاد وراحت تحكي عن شقاوته معها.

وحكوا هم أيضاً عمّا كان جهاد يقوم به أثناء تدريبات مسرح الحزب، وكيف كان يتقمص شخصية عادل إمام ويرتجل حوارات لا أحد يدري أولها من آخرها، وكانت والدة جهاد تصغي باهتمام وهي تضحك تارة وتبكي أخرى. قالت بصوت متهدم :

- لا أدري إذا كنت يوماً من الأيام سأعود وأراه من جديد؟!!!

- هذه قريته سيرجع إليها حتماً...

- هذه قرية تعاقب من أحبها.

شرب أيوب ورفاقه القهوة وقبل أن يودعوها قالوا:

- سنزورك في الأسبوع القادم.

- هذا منزلكم.

لكن يبدو أن النسيان هو المولود غير الشرعي للظروف ، فاقترنت زياراتهم بعامل الوقت المتاح لديهم، وأصبحوا يزورونها مرة كل شهر أو كل شهرين، لكن الذي لم تستطع الظروف أن تبدله هو غياب جهاد عنهم، فقد ظل هذا الغياب يشكل النقص الدائم والمستمر في لوحتهم التي رسموها ذات يوم.

وتوجهوا إلى منزل الرفيق سهيل، وحين وصلوا وجدوا منزله معتماً على غير عادته، فقرروا أن يعودوا أدراجهم لكن أحد الرفاق تشجع وقرع الجرس.

فتح الرفيق سهيل الباب الرئيسي ووقف أمامهم تحيطه العتمة من كل الجهات بينما بقي ضوء القمر ينساب بوهن على صفيحة وجهه.

- عفواً على الإزعاج.. هل أيقظناك؟

- لا أبداً كنت أشاهد التلفاز..تفضلوا.

تناثرت أحاديث مختلفة والتهى أيوب بتقليب صفحات كتاب وجده ملقى على الطاولة أمامه. قال أحد الرفاق:

- لا تزال أخبار جهاد مقطوعة، لم يتصل بأمه حتى الآن. غريبٌ أمره.

- علمت بذلك فقد صادفت والدته في المخبز قبل يومين وبادرتها التحية وسألتها عن جهاد واستشفّيت من إجابتها عدم رغبتها بالحديث معي... لا أدري لماذا تعتبرني خصمها؟. على كل حال أتمنى أن تصلنا أخبار عنه في القريب العاجل. أردف الأستاذ سهيل ثم وجه كلامه إلى أيوب:

- وكيف عملك الجديد؟

- لا بأس به.

- ولماذا نبرة صوتك خافتة؟ لقد سنحت لك فرصة من ذهب يا أيوب فاستغلها، وحاول دائماً أن تتحدث مع الرفاق وأن تحاورهم فكل واحد منهم يجر وراءه تاريخاً من النضال والكفاح.

- أحاورهم باستمرار.

- وكيف وجدتهم؟

- يشبهون كتاباتهم. فلا هي تقوى على الإفلات منهم ولا هم يستطيعون التحرر منها.

- يخيّل إليّ أنك بدأت تركب موجة أولئك الذين لم يتوقفوا عن نقد تجربة الحزب الطويلة.

- ولماذا تسميها موجة.

- لأنهم لا يعرفون عن ماذا يتكلمون.

- لكن نقد التجربة ضروري وممارسته ضرورية.

- حزبنا أسمى من أي نقد إنه حزب المحرومين والمناضلين والأحرار، ثم إنه ليس بحاجة لأنذال يلقون حجراً بالبئر الذي شربوا منه.

- قالت السماء: لم أضق يوماً بنجم واحد من نجومي.

- وقال والد أيوب: كيف ستنتظر نتائج جديدة إذا كنت دائماً تتبع الطريقة ذاتها.

- وقال الأستاذ جمال: للأسف أحزابنا تفتخر دوماً بأنها صوت الفقراء والمحرومين لكنها لم تحاول قطّ، إخراجهم من فقرهم وحرمانهم.

استيقظ أيوب ذات يوم فوجد وجه الأرض قد تغير والبيوت تحولت إلى بيوت من طين فارغة ومهجورة تهتز أبوابها الخشبية مع كل هبة ريح، وفي البعيد وقفت سفينة تشبه سفينة نوح يتسابق الناس بجنون للوصول إليها. سأل أيوب أحدهم:

- أين نحن؟

- في أرض لا أحد.

- ولمادا تركض؟

- لأن الجميع يركض.

- وهل سترحل مثلهم؟

- يا ليتني رحلت من قبل، لقد أيقنت متأخراً أن القصائد كاذبة وأشك أنه في البدء كانت الكلمة.

ثم سأل رجلاً آخر:

- وأنت... لماذا ترحل؟

- لكي أعرف إذا كنت أصلح أو لا أصلح، أدرك أو لا أدرك. لطالما حلمت بالعودة لكن العودة لا تأتي إلا من رحيل.

هاتف والد أيوب قريباً له في فنزويلا لم يره منذ أكثر من عشرين سنة ، تحدث معه عن رغبة ابنه بالسفر فوافق. ولم يمض وقت طويل حتى بدأ أيوب بإعداد حقيبة سفره .

سأله والده:

- يا بني ! لقد غابت أمك عني بسبب موتها أما أنت فلماذا ستغيب عني؟

أجاب أيوب والدمع يبلل عينيه:

- لأنني أرفض أن أموت.

-13-

- ماذا حدث؟ هل أصابك مكروه يا بني؟ لماذا قدمت باكراً؟

- سرقوا اليوم متجر السيد عباس لكن الحمد لله لم يُصب بمكروه. اتصلت بعمي وأخبرته عن حادثة السرقة فطلب مني أن أغلق المتجر في الحال وأعود إلى المنزل.

- أحسنت صنعاً. عليك أن تأخذ حذرك دائماً. قالت السيدة عائدة وتابعت بحسرة: مسكين هذا الرجل، كل سنة يسرقونه مرة أو مرتين.

- سمعت من الناس أنه دخل إلى متجره صبي لا يتجاوز عمره الخامسة عشرة وأجبره بقوة السلاح على إعطائه النقود!.

- هذا أمر ليس بجديد، وستتعود على هذا الوضع كما تعودنا عليه نحن.

- لكن هذه جريمة لا يمكنها أن تتحول إلى عادة. كيف يعقل أن يحمل صبي تحت السن القانوني سلاحاً ويبدأ بالسطو على الناس بدلاً من أن يحمل أقلاماً وكتباً مدرسية؟

- بالطبع جريمة، لكن المجرم الحقيقي من يدفعه ويدفع غيره للقيام بذلك.

- تقصدين الجوع؟

- أقصد الحكومة التي لا ترغب بأن تجد حلاً لهذه الأزمة. الحكومة التي تتواطأ باستمرار على حياة الفقراء ومستقبلهم ولا تلتفت إلى واقعهم الذي لا يقدم لهم إلا الحرمان والقلة والجهل.

- يا سيدة عائدة ما أعرفه أن كل الحكومات في العالم تريد خفض معدلات الفقر في دولها، وعلى الأرجح لا يتعلق الأمر بالرغبة فحسب بل بالقدرة على إيجادها.

- عن أية قدرة تتكلم يا بني... الحكومات دائماً تعيش من وراء أولئك الفقراء لتحقيق غاياتها، فبعض الفقراء هنا مثلاً يسرقون ويقتلون ليشتروا مخدرات. هل تعتقد أنهم يعاقبون على جرائمهم؟ بالطبع لا لأن البوليس شريكهم الدائم يؤمن لهم الحماية والسلاح وطرق التجارة القذرة، والقضاة يخرجونهم من السجن، وحقوق الإنسان تخرجهم من السجن.

لقد وُلِد الإنسان يا أيوب وولد معه القتل والفساد. هذه هي الحياة لا تزال على حالها لن تتغير. أردفت السيدة عائدة وانشغلت بسقاية الورود في الحديقة.

- أولاً أرجو أن تجلسي وتدعيني أقوم بالسقاية، ثانياً، إن الحياة تتغير والناس فيها يتغيرون.

- يتغيرون؟ بالطبع يتغيرون لكن نحو الأسوأ. أجابت مقاطعةً ثم أضافت: لا تلق بالاً يا بني، العمل المنزلي يسليني، ثم جاء موعد قدوم ناديا ويجب أن أنظف البيت كله.

- على كثرة ما تتحدثين عنها صرت أتوق لرؤيتها وأعتقد أن وجودها سيساعد على تغيير الكثير من الأوضاع في البيت، أقصد سوف يخرجك من وحدتك، وأظن أن عمي سيلتزم بتواجده في المنزل.

- أرجو ذلك. إلا في حالة واحدة.

- وما هي؟.

- أن يكون عمك قد أصبح أباً مرة ثانية.

- لا تدعي هذه التخيلات تنال منك لأنك فيما بعد سوف تصدقينها.

- حياتي أصبحت كلها تخيلات يا أيوب، حتى أنني أشعر أحياناً بأن الذي أعيشه ليس أكثر من حلم، وكل الذي حولي عبارة عن أطياف.

- يا ليتني أملك شعورك هذا.

- هل أنت مجنون؟ ألا ترى كيف أعيش حياتي.

- إن الذين يحلمون في النهار يا سيدة عائدة يستطيعون تجسيد أحلامهم بعيون مفتوحة خلافاً لأولئك الذين يحلمون في الليل، وعند الصباح يحرق روتينهم اليومي أحلامهم ويحولها إلى رماد.

- ولماذا تجزم أن تخيلاتي عبارة عن أحلام يقظة! ألا يمكن أن تكون الوجه الآخر للخوف؟ سألت السيدة عائدة.

- لم أفهم قصدك! هل تريدين القول إنك طريدة خوف ما؟

- ليس بالضبط كما تتخيل لكنه يلازمني غالباً.

- وما الذي يخيفك؟

- يخيفني...العيد مثلاً.

- العيد؟ غريب أمرك ! العيد ولادة... فرح.. حب... تخافين منه!!!!.

- وماذا أفعل؟ حظي السيئ أراد ذلك..

- لكن لماذا العيد بالتحديد؟ بصراحة يا سيدة عائدة لم أعد أفهم شيئاً!

ضحكت السيدة عائدة من حيرة أمر أيوب وراحت تخبره عن مشاعر خوفها الداخلية والمرتبطة بالأعياد:

- جاء سيرك جوال إلى القرية التي كنا نقطنها في يوم من أيام شهر ديسمبر، واقترحت على عمك اصطحاب ناديا التي لم تكمل وقتها الثانية عشرة من عمرها لرؤية الفيلة والنمور، ولم نكد نصل إلى هناك حتى أوقفتنا امرأة قاتمة اللون ذات عينين رماديتين وعرضت علينا قراءة الطالع، لم نكترث لها ومضينا في سبيلنا لكنها أوقفتنا من جديد ونبهت عمك قائلةً:

- إحذر من أن تصبح في المستقبل مثل بابلو.

- ومن هو بابلو؟ سأل.

- إدفع أولاً وسأخبرك.

أثارت العرافة بكلماتها وشكلها الغريب فضول عمك فرأيته يدفع لها وسمعتها تحكي:

كان بابلو شاباً في الثامنة عشرة من عمره جميلاً ولطيفاً ومحبوباً يعمل مع والده في زراعة الأرض وفي تربية الأبقار، وفي عصر يوم صيفي مر بأرض والده فرأى رجلاً جالساً فوق هرم طويل، بادره الرجل بالقول:

- تتعجب كيف وصل هذا الهرم إلى أرض والدك أليس كذلك؟

- من أنت؟.

نزل الرجل بسرعة البرق ووقف أمامه، ثم التقط من الأرض حفنة تراب وسأل من جديد:

- هل تعرف ما هذا؟

- إنه تراب.

فانقلب التراب فجأة إلى ذهب.

- هذا لك ولأهلك. إذا أردتم الذهب فتعال غداً مع والديك في مثل هذه الساعة.

أخبر بابلو والديه اللذين ظنا أن ما رآه ليس أكثر من أضغاث أحلام .

في اليوم التالي مر بابلو من جديد في المكان نفسه لكنه لم ير الهرم بل سمع خوار ثور فأخذ يمشي نحو الصوت... مشى ساعتين، ثلاث، أربع، حتى وصل إلى هرم طويل يجلس فوقه الشخص نفسه.

- تأخرت. قال الرجل.

- لم يصدقاني.

- هل أنت خائف.

- لا .

فنزل الرجل بسرعة البرق ووقف أمامه، أعطاه صفيحة من الذهب وقال له:

- خذها إنها لك.

أمسكها بابلو فانقلبت إلى تراب.

- لقد تأخرت... تأخرت. قال الرجل واختفى.

سأل عمك:

- هل انتهت الحكاية؟

- نعم. أجابت العرافة.

- قلتِ لي إنك ستقرأين مستقبلي ودفعت لك، ثم بدأت تقصين عليّ حكاية لا علاقة لي بها.أريد أن تقرأي لي ما يخبئه المستقبل لي.

- قرأته ولم أخدعك. لكنني لا أستطيع أن أصنعه لك، عليك أن تصنعه بنفسك.

- وماذا يعني كل هذا. أنا أجهل قراءة ما بين السطور.

- لا تتأخر على رزقك مهما كانت الأسباب. اخدمه أولاً.

أجابت العرافة ومضت، ومن وقتها لازمني الخوف، الخوف من المستقبل، الخوف على عمك، الخوف من عمك.. لا أدري.

- تلك المرأة ليست عرافة أو ربما كانت عرافة مبتدئة، طفل صغير يستطيع نسج حكايات عن مستقبل الآخرين أفضل من حكايتها، إنها ترهات لا أساس لها، قال أيوب مستهزئاً وأضاف: وإذا كان خوفك وليد هذا الموقف فالأحرى بك أن تعيدي حساباتك.

- لكن عمك العزيز صار يخدم رزقه أولاً والتزم حرفياً بما قالت له العرافة، لأنه ببساطة يخاف من أن يتحول الذهب بين يديه إلى تراب.

- ما يقوم به عمي أمر بديهي لا علاقة للعرافة به، فمن هو المجنون الذي يقبل أن يتحول الذهب بين يديه إلى تراب؟ هل تقبلين أنت؟

- طبعاً لا أقبل لكني أرفض في الوقت نفسه أن يحولني ويحول بيته بسعيه هذا إلى تراب.

لم تكد السيدة عائدة تنهي كلامها حتى رن جرس الهاتف، فتوجهت إلى الصالة وأخذت تتكلم، وبعد لحظات عادت إلى الحديقة لتكمل حديثها مع أيوب، ورأته بالكاد يفتح عينيه بعد أن نال النعاس منه:

- اتصل ليخبرني بأنه سوف يتأخر.

- ......

- قال لي إنه خابر السيد عباس ليطمئن عليه.

- .....

- صارحه السيد عباس بأنه لم يعد يطيق البقاء هنا ، وأقسم بشرفه على العودة إلى وطنه.

- ....

- كل مرة يسرقونه بها يقسم على العودة، وبعد يومين ينسى وكأن شيئاً لم يكن.

- ....

- يبدو أن النعاس تمكن منك يا بني فعيناك تطبقان لوحدهما.

- ......

- لا تنم هنا في الحديقة... قم واغسل وجهك.. سأدخل إلى المطبخ لأعد لك ما تأكله.

مال أيوب برأسه فرأى سور الحديقة يتهدم ويدخل منه شابٌ لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره يجر روسا من شعرها ويتقدم بخطوات سريعة نحوه.

- أعطني المال وإلا قتلتها: صاح الشاب بحزم ودس مسدسه في رأس روسا.

- هدئ من روعك أرجوك....

- أعطه ما يريد يا أيوب لا تدعه يقتلني.. لا أريد أن أموت..لا أريد أن أموت صرخت روسا وهي ترتجف من حالة الذعر التي أصابتها.

- لا أملك نقوداً فتشني إذا أردت... أرجوك إهدأ ودعها ترحل.

ودوت طلقة رصاص في المكان امتص الليل الساكن صوتها وصوت روسا التي سال دمها فوق العشب الأخضر.

رمى أيوب نفسه على الأرض وجثا بجانبها وحضنها بقوة تشبه قوة الحياة، وفي الحال قدمت غيمة من بعيد يقف عليها رجل ذو وجه متطاول وشفتين غليظتين يحمل بيده صولجاناً دهليزياً كأنه البرق، ولما دنت الغيمة من أرض الحديقة سجد الشاب دون أن ينبس بكلمة، وأومأ الرجل ذو الوجه المتطاول برأسه لكي يغادر المكان. وقف الشاب وانحنى نصف انحناءة ومضى كزوبعة حملت معها أوراق الشجر ودموع أيوب وبقع دم لزج وحار.

- لقد قتلها... ماتت روسا... ماتت روسا. قال أيوب بصوت هدَّه البكاء.

- لا تحزن عليها. هذا قدرها. أجاب الرجل ثم حرك بصولجانه فتحولت روسا إلى وردة حمراء.

- من أنت؟ سأل أيوب بدهشة.

- أنا جوبيتر إله السماء والأرض والبشر.

- أنت الذي قرأنا عنك وأحببناك.

- أجل أنا الذي قرأتم عني، وسيقرأ عني كل الذين سيجيئون من بعدكم وسيحبونني أيضاً.

ولاح من بعيد رجل عجوز يمشي الهوينا، ولما رآه جوبيتر يدنو من الحديقة طار ممتطياً غيمته وتلاشى.

- من أنت؟ سأل أيوب.

- أنا الرجل الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من أبناء المدينة التي حكمها جوبيتر.

- وماذا تفعل هنا؟.

- لا شيء. المسألة ببساطة تتعلق بيني وبينه، لا أنا أستطيع العيش من دونه ولا هو يقدر على العيش من دوني.

- لكنه رحل حين رآك.

- وسيبقى يرحل وسأبقى ألاحقه.

- وما علاقتك به؟

- أسجل أخباره وأقصها على الناس.

- لا تقل لي إنك هوميروس؟

- وهل تراني أعمى؟ ثم إن هوميروس فتح الله له طاقة السماء عندما أصبح شاعر أولئك الآلهة، أما أنا بالكاد أشبع الخبز.

- وأي حكايات تقص للناس إذا لم تكن شاعراً؟

- أقص عليهم ما رأيته بأم عيني وما أراه.

- تقصد عن حياتك السابقة؟

- حياتي السابقة واللاحقة أيضاً.

- أخبرني ماذا رأيت؟

- ما رأيته هو الشيء ذاته الذي رأيته أنت الآن...فتاة تُقتل وتتحول إلى وردة؟

- لم أفهم؟

- يعني، كيف سأشرح لك! أردف الرجل العجوز وهو يفكر ثم سأل: هل تتذكر أراخني ابنة الصباغ إدمون الفتاة المشهورة في الحياكة؟

- أجل قرأت عنها وقرأت كيف حولتها أثينا إلى عنكبوت...لكن ما علاقة ذلك بالذي نتحدث عنه؟

- لأنه هكذا كانت سلطة جوبيتر تتحدى المبدعين...وبدلاً من أن تكافئهم على مهارتهم كانت تعاقبهم. أجاب الرجل العجوز ثم سأل من جديد: وهل قرأت عن ثيبسي التي كانت أجمل عذراء في بابل؟

- بالطبع فأنا اطلعت على أدبكم كله. لقد قرأت أن والديها لم يوافقا على أن تتزوج من الشاب بيراموس، وأنهما اتفقا سراً على أن يلتقيا حين يحل الظلام تحت شجرة التوت في الغابة خارج المدينة، وحين كانت تنتظره شاهدت لبوة فخافت وهربت لكن خمارها سقط على الأرض فأمسكت اللبوة الخمار بفمها المضرج بالدم ثم ألقته وواصلت طريقها، وحين وصل بيراموس وشاهد الخمار اعتقد أن حبيبته ماتت فاستل سيفه وقتل نفسه، وبينما هو يلفظ أنفاسه عادت ثيبسي ولم تفكر بشيء آخر سوى أن تموت بجانب حبيبها، فقتلت نفسها بسيف بيراموس نفسه، فاختلط دمها بدم حبيبها وصعد إلى شجرة التوت.

- وهل صدقت ذلك؟.

- ولماذا لا أصدقه!.

- ليس كل ما كتبوه صحيحاً تماماً... لقد كان بيتي يبعد عن بيتها مسافة خمسين متراً فقط وشاهدت بأم عيني ما حدث بالفعل. جاؤوا وهددوا والدي ثيبسي بأنهم سيقطعونهما إرباً إرباً في حال موافقتهما على زواج ابنتهما من بيراموس، وحين حاولت ثيبسي وحبيبها البحث عن مخرج والهروب إلى مدينة يكون التنظيم الاجتماعي فيها يعمل على سعادة مواطنيها وليس على شقائهم كان الموت في انتظارهما .

لقد كانوا أقوى من أحلامها وأقوى من رفضها، فقتلوا حبيبها ورموه جثة هامدة أمام رجليها ليبينوا لها ولغيرها بأنهم لا شيء وبأنهم مجرد ظلال عابرة، إلا أن ثيبسي لم تبع نفسها لأولئك الأنذال فقتلت نفسها... هكذا كان الناس يموتون في مدينة جوبيتير، وهكذا كانت تنطفئ الأحلام وهكذا بدأت هجرة الإنسان الأولى... لا تسمح لهم يا أيوب بتحويلكم إلى عناكب أو إلى ثمار أشجار توت أو إلى ورود حمراء، لا تدعهم يا أيوب...

- أيوب... أيوب.... أيوب... قلت لك ألّا تنام في الحديقة قم لتتناول طعامك يا بني.

-14-

شعر أيوب أن قريته تتحول إلى خيط من دخان أسود يحلق فوق صحراء واسعة وقاحلة، فأراد أن يلاقي الله. ولم يدر حينئذ إذا كان يتمنى الموت فعلاً أو يحاول الهروب منه، وشعر أيضاً أن مدينته لم تعد تشبه نفسها بل تشبه مسرحاً يحاول الممثلون فيه إقناع المتفرجين بأن كل ما يقومون به هو واقع مثالي يجب على الناس أن يقتدوا به، فالقاتل يعترف بأنه قاتل لكنه يبرر جريمته بألف طريقة منطقية، والضحية تعترف بأنها ضحية لكنها تبرر موتها بألف طريقة منطقية.

أخافته طريقة العيش الجديدة حيث أصبح الناس في مدينته لا يتحدثون بل يلفظون الكلام، لا أحد يفهم أحداً ورغم ذلك قد يتفق أحدهم مع الآخر أو قد لا يتفق، وذلك بسبب قناعة مسبقة تنص على أن الحوار يجب أن يوصل إلى اتفاق أو لا اتفاق، وأصبح ناسها يستيقظون كل صباح ليس حباً بالصباح بل لأنه ينبغي عليهم الاستيقاظ، ويشربون القهوة التي يرون إعلاناتها في شاشات التلفاز ولا تعجبهم لكنهم مضطرون للاعتراف بأنها قهوتهم المفضلة، وحين يشعر أحدهم بأن بركاناً ما قد أخذ بالتحرك داخله يفاجئه طبيبه بأن يقول له بكل ثقة وكبرياء بأنه مصاب بمرض (السترس) فيحب مرضه لمجرد أنه مرض العصر.

قالت السماء لأيوب:

- مجنون من يدافع عن قضية رابحة ويعرف أنها لابد أن تخسر يوماً ما.

وقال والده:

- أنا لا أثق برجل قد تخلى عن أحلامه.

وقال له الأستاذ جمال بينما كانا جالسان في مقهى يبعد قليلاً عن مكتب الحزب:

- أعتقد أننا تحدثنا في هذا الموضوع سابقاً لكنني أرغب بأن ألفت انتباهك إلى أنه من الضرورة بمكان تطوير قدرات الإنسان ليس فقط لتصبح وسيلة من أجل تلبية حاجاته الأساسية بل لتتحول إلى طاقة تنتج أعمالاً إبداعية وأخلاقية، المواطن الذي يشبهك ويشبهني يا أيوب يبحث بشكل دائم عن طريق يحقق له العيش الكريم والاستقرار والأمن، ومن هنا تأتي أهمية إعادة بناء برنامجنا السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي يجب أن يتركز في المقام الأول على تنفيذ سياسة التنمية بجميع أشكالها الثقافية والصناعية والصحية، وتحسين البنية التحتية والتأكيد على أن ثقافة الحياة أفضل من ثقافة الموت، التنمية يا أيوب هي الاسم الآخر للسلام.

- لكن العالم يسير منذ عقود بهذا الاتجاه إلا أن نعمة السلام لا تزال مفقودة.

- وستظل مفقودة.

- إذاً ما فائدة عملنا وما فائدة الأحزاب. يبدو أنه يجب علينا أن نكون معارضين دوماً.

- معارضة عن معارضة تفرق ، فهناك معارضة تخلقها السلطة نفسها، كما تخلق عدواً لها حتى لو كان وهمياً وذلك من أجل أن تعرض قوتها دائماً وأن تبرر انفرادها بالحكم. إن التنمية تزدهر حين

نسقط مفهوم المعارضة التي تعني إلغاء الآخر واستبدالها بوظيفتها البرلمانية التي هي جزء من سياسة دولة شاملة. أن تعارض يعني أن تحاور الحكومة، أن تقبل مشروعها أو ترفضه عن طريقة المؤسسات الديمقراطية وليس بالمطالبة بإسقاطها عن طريق السلاح.

- لكن إسقاط الحكومة مطلب مشروع.

- بالطبع مطلب مشروع لكننا، وحسب الطريقة التي تفكر فيها ويفكر فيها الكثيرون، سوف نبقى كشعب يتحرك في دائرة مغلقة حيث تصبح المعادلة انتصار شرٍ فتي على شرٍ هرم دائماً، إن المعارضة التي تعمل خارج الإطار الدستوري وإن انتصرت سوف تمارس بالضرورة أسلوب السلطة السابقة وتطبق سياستها بإلغاء الآخر وخلق معارضة وعدو دائمين لها.

- وما العمل برأيك؟

- تغيير قوانين اللعبة ومعرفة كيفية الانفتاح على العالم.

- وهل تعتقد أننا غير منفتحين على العالم؟ أعجب من كلامك يا أستاذ جمال وكأنك لا ترى أننا أصبحنا قرية صغيرة.

- الانفتاح على العالم يا أيوب ليس النهاية السعيدة كما تتخيل بل هو البدء في النضال الحقيقي بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. إن النظام الاقتصادي القادم ليس خيراً بالمطلق فهو يحمل معه شروطاً جديدة، وإذا وافقنا عليها كلها نكون كأولئك الذين كتبوا على أنفسهم صكوكاً مالية سوف يعجز أولادهم على تسديدها في المستقبل، لهذا السبب يتطلب الأمر منا تغيير قوانين اللعبة.

- شروط مثل ماذا؟

- يعني أن نضطر مثلاً للقبول بأن تتحول برلمانات العالم كلها إلى برلمان واحد كقريتك الصغيرة التي تتكلم عنها وتصبح القوانين التي تصدر واحدة لكل المجتمعات دون النظر بخصائصها الطبيعية وذلك فقط من أجل أن تتناسب طرداً مع استمرارية عجلة اقتصاد السوق الحر، كالموافقة مثلاً على حيازة المخدرات واستهلاكها تحت شعار حق الإنسان في اختيار طريقة عيشه.

- لكن برأيي هناك قضايا أكثر تعقيداً من تلك التي تفكر فيها يا أستاذ جمال.

- صدقني يا أيوب لا توجد قضية أخطر من تفسخ النظم الاجتماعية وجعلها عرضة للضعف والهوان والخسة.

-15-

رأى أيوب شجرة مرتدية ثوباً من أضواء ملونة، وقف بجانبها ينتظر سيارة أجرة لتوصله إلى منزل عمه، فجأة سألته الشجرة:

- وأنت بأي حلة ستلاقيه؟ أجاب بدهشة مستفسراً :

- سألاقي من؟

- سيأتي ولن يشعر بوطأته أحد. سيمر أمامنا كسحابة صيف.

- من أين سيأتي؟

- من طفولتك.

- وإلى أين سيمر؟

- إلى قلبك.

- وماذا سيترك؟

- المحبة.

- وإلى أين سيمضي؟

- لا تقل إلى أين سيمضي، قل متى سيعود.

اقترب عيد الميلاد، ثمة أحلام جديدة مستلقية في كل زاوية وثمة متسع لكل الأغنيات، فلا تخف على موسيقاك. هذا وطن بعيد عن حروبك وبعيد عن طبولك لكنه أسير حربه غير المعلنة، وأسير جرحه النازف من خاصرته. اقترب عيد الميلاد..انتقام صبياني يؤدي إلى الموت، معادلة حب خاطئة تؤدي إلى الموت، البحث عن المال يؤدي إلى الموت. طفولة غامضة كعين الغراب لا تستطيع التعرف على ذاتها أو أن تتعرف على اتجاهها، لكنهم يعرفونها ويعرفون كيف يوجهونها.

قال:

- الأرض خراب.. الأرض خراب.

أجابت:

- سيأتي يطلب رحمة لا قرابين.

- أربعون بوليفار يا سيد.

- آه.. عفواً..تفضل.. شكراً لك.

دخل أيوب إلى المنزل فرآه يشبه خلية نحل، الكل يعمل بلا توقف، زوجة عمه والسيدة خوليتا وابنتها، وكان المكان يعبق برائحة الطعام.

- هل اتصل عمي؟

- أجل قبل ساعة ، أخبرني أن الطائرة وصلت.

- الحمد لله على سلامتها. هل تحتاجين إلى مساعدة؟

- لا تتعب نفسك أنهينا إعداد كل شيء تقريباً.

- لا تزال الحديقة بحاجة إلى ترتيب، ويجب تنظيف الطاولات والكراسي ومسحها، قالت السيدة خوليبتا وقادت أيوب إلى الخارج من يده كطفل صغير ثم أضافت:

- عندما تكمل التنظيف ضع مفارش المائدة على الطاولات.

- لا تقسي عليه ودعيه يرتاح قليلاً لقد عاد من عمله توّاً. أردفت السيدة عائدة معاتبةً.

- يرتاح في بلده هناك، أنا أرى قريبكم هذا طرياً لا يشبه عمه بشيء. أردفت السيدة خولييتا ونادت على ابنتها دانييلا التي وقفت بجانبها صامتة وخجلة، ثم تابعت وهي ترخي يدها على وجه ابنتها وتلامسه بحنان :

-أنظر يا أيوب إلى هذا الوجه الملائكي ألا يعجبك؟.

- طبعاً، ابنتك جميلة جداً. أجاب.

- إذاً قل لها كلاماً لطيفاً، أطلب منها على سبيل المثال أن تساعدك بترتيب الحديقة ، هل سأعلمك أنا كيف تتعرف على فتاة؟ على كلٍ هذا الموجود عندي، أختها أنيتا مخطوبة لشاب مجنون قليلاً لا أنصحك بالمحاولة معها. ضحكت السيدة عائدة وأردفت:

- ليس خطيب ابنتك المجنون بل أنت المجنونة وستبقين مجنونة.

وصل السيد وجيه إلى المنزل، وبينما كان أيوب يساعده في حمل حقائب السفر رأى ناديا تركض صوب أمها وترتمي في حضنها.

- قال السيد وجيه: ابنتي ستصبح أول طبيبة في العائلة.

- وقالت زوجته: ابنتي قطعة من قلبي.

- وقالت السيدة خولييتا: ناديا تشبه غدها.

اكتظت حديقة المنزل بالناس وصارت أصواتهم تتناثر كأنها ترنيمات جميلة وغريبة تنشدها عذراء في معبد فألقى المكان عن كاهله ولأول مرة أعباء صمته الطويل.

كان السيد وجيه يتحدث مع بعض الزوار بينما استمرت زوجته والسيدة خولييتا تتنقلان بين المدعوين تلملمان أخباراً مختلفة وتضحكان كطفلتين مراهقتين وعابثتين، أما ناديا فأحاط أصدقاؤها بها حتى لم يعد يبدو منها شي، وفجأة التقت عينا أيوب بعينيها فابتسمت وعادت على الفور للحديث مع أصدقائها إلا أنه بقي مذهولاً وشارداً ولا يعرف ماذا حصل، ولماذا لم يعد يقوى على التحكم بأنفاسه، وتملكته على الفور نوبة من الحر الشديد وتوجه مسرعاً إلى غرفته وغسل وجهه بماء بارد وحين عاد أدراجه تفاجأ بالسيدة خولييتا التي أخذته من ذراعه وقالت هامسة بإذنه:

- هذا هو الحب أيها المغفل هل ستطفيء جذوته بقليل من الماء تغسل به وجهك.

- ...

- إحذر من أن تحفر قبر مشاعرك بيديك، إجعلها طليقة لتعبر عن ذاتها.

- ....

- طبعاً لم تعجبك ابنتي، وسقطت أسيراً من أول نظرة من عيني قريبتك.

- ....

- ناديا رقيقة كجناح فراشة يا أيوب أرجو أن تصونها وتحترمها.

بدأ الضيوف يغادرون ولم يبق في حديقة المنزل غير السيد وجيه وزوجته وناديا وأيوب وضوء القمر ووعود مختلفة لأيام قد لا تخون تلك الوعود.

****

- ومتى ستعرفني على زوجتك الجديدة يا والدي؟ قالت ناديا وهي تقضم قطعة خبز.

- أنا لا أبدل أمك بنساء العالم كلها؟

- أنا متأكدة لكنني أحببت ان تسمع أمي ذلك بأذنها.

فاض وجه السيدة عائدة بتقاسيم خجلة وكأن ورودأ حمراء نثرت ألوانها عليه فعلّقت بعتب محبب:

- الرجال متشابهون يبيعون كلاماً فحسب.

- والنساء ماذا يفعلن غير الثرثرة، تحشين رأس ابنتك بترهات سخيفة حتى وهي في إسبانيا.

- هذه ليست ترهات كما تدعي يا والدي. قالت ناديا.

- إذاً ما هي؟

- إنها علاقة الأم بابنتها...فأنا وأمي لا نخبئ شيئاً على بعضنا البعض.

- هذا ما أرجوه، قال السيد وجيه وأضاف: بالمناسبة غداً ستذهبين معي لكي تختاري السيارة التي تعجبك.

قفزت ناديا من كرسيها واتجهت نحو والدها وعانقته:

- أشكرك يا والدي العزيز لكن كما تعلم أنه بعد شهرين سوف أعود إلى إسبانيا لإكمال سنتي الأخيرة.

- أفهم من كلامك أنك ترفضين هديتي!

- لا على العكس، كيف يمكنني أن أرفض مثل هذه الهدية! أريدك أن تؤجلها فقط.

- ولماذا أؤجلها! السنة القادمة سأهديك واحدة أخرى، ثم عندما تسافرين سيقود السيارة أيوب لأنه بحاجة إليها أيضاً..أقلّه سوف أكف عن عملي كسائق له، أجاب ثم نهض بتمايل عن كرسيه واستأذن لينام.

في نهاية عطلة الأسبوع خرج أيوب مع ناديا في جولة يطويان طرقات المدينة بدون اتجاه محدد.

كان ينظر إليها وهي تقود السيارة بعينين يملأهما الشوق والفرحة والتفاؤل، وشعر للمرة الألف أن نبضات قلبه صارت تطرق اسمها بصدره كقبضة رجل عملاق، كان همه الوحيد أن يجد الطريقة المناسبة ليعترف لها بحبه فوجد نفسه من غير أن يعي يحكي لها يوم جاء إلى المتجر شاب عربي يعرض عليه بضاعته:

- هل تعرفه من قبل؟ سألت ناديا.

- لا. كانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي رأيته فيها، سألني عن اسمي وقال إنه يبيع أجهزة كهربائية بالجملة وإنه سيعطيني سعراً مناسباً وتسهيلات للدفع.

- وهل اشتريت منه؟

- أنا لا أشتري البضائع، فوالدك هو الذي يحضرها، وعندما عرف أنني قريبه قال لي بأنني ولدت في ليلة القدر.

- وأنا ولدت في ليلة القدر أيضاً لأنه والدي، آه يا أيوب لو تعرف كم أحبه! قالت ثم سألت من جديد:

- و ماذا حدث بينك وبين العربي؟

- لا شيء! سألني إذا كنت متزوجاً ثم قص عليّ كيف تعرف على زوجته.

- وكيف تعرف عليها؟

- قال لي إنه كان على علاقة مع فتاة عربية تقيم في المدينة التي يعمل فيها، وتقدم إلى والدها لطلب يدها إلا أنه رفض ولم يقبل بأن يصبح زوجاً لابنته بحجة أنه لا يملك بيتاً ولا سيارة ولا رصيداً في البنك، وذات يوم تعرف على فتاة فنزويلية فدعاها لتناول سندويشة شاورما، ومنذ ذلك الوقت صارت زوجته.

- صحيح إذاً كما يقولون إن الزواج قسمة ونصيب. قالت ناديا ثم تابعت: إذاً لن أحب ولن أعجب بأحد طالما نصيبي هو الذي سيجلب لي عريسي.

صمت أيوب عندما سمع ما قالته ناديا، فقد خمن أنها بإجابتها تلك قطعت عليه الطريق لأية محاولة جديدة أو مبتكرة ليكشف لها عن حبه..ارتبك وظل قابعاً في كرسيه ينظر إلى الطريق كطفل ناعس.

- ماذا حل بك؟ لماذا توقفت عن الكلام؟ سألت ناديا.

- أريد أن أشعل سيجارة.

- التدخين ممنوع في سيارتنا.

أعاد أيوب علبة السجائر إلى جيبه وعاد يحدق في الطريق صامتاً. وبعد هنيهة أردفت ناديا من جديد:

- يبدو أن هذا الأمر لن ينفع معك.

- أي أمر؟

- أن أمنعك من التدخين.

- ليس مهماً، لا تقلقي.

- أعرف كافيتيريا تقدم قهوة جيدة، سأدعوك إلى هناك وتدخن على راحتك لكنك أنت الذي سيدفع. قالت ناديا ثم حرفت السيارة باتجاه الطريق السريع.

كانت الكافيتيريا واسعة ورحبة ذات مدخل واحد مؤلف من بابين زجاجيين وأمامها باحة صغيرة مفروشة بالطاولات التي كادت تلتصق بعضها ببعض، وقف أيوب للحظة ملقياً نظرة على المكان حائراً لا يعرف أين يجلس ثم اختار طاولة بكرسيين، واتجه مع ناديا إليها، نادى على النادل وطلب منه إحضار فنجاني قهوة.

- والآن هل ستتابع حديثك؟

- وعن ماذا كنا نتحدث؟

- يبدو أنك تنسى سريعاً.

- أنا لا أنسى. أجاب أيوب كمن تنبه بغتة من سبات ، ثم أضاف: لكنني أحاول أن أصارحك ولا أعرف بعد الطريقة المناسبة...

- وبماذا ستصارحني؟ أجابت ناديا مقاطعةً.

- أريد أن أضيع في غور عينيك وأن أحيك من خطواتك سجادة صلاتي، وأن أقسم للورد بأني لم أر أجمل منك.

- وأنا أقسم بأن أخبر والدي عن الذي تقوله.

وقف أيوب مذعوراً كأن أحداً رش وجهه بماء بارد وأجاب متوسلاً:

- أرجوك لا تخبريه سيعلق مشنقتي يا ناديا.

التقطت ناديا يده بيديها الاثنتين وقالت ضاحكةً:

- إجلس ولا تقفز كالمجنون.. لن أقول له شيئاً.

- يبدو أنني تعجلت باعترافاتي! أنا آسف.

- لا داعي للأسف، فعندما يتدخل العقل أحياناً بترجمة ما يقوله القلب نفشل في تحقيق ما نبتغيه.

- يعني لست غاضبة؟

- لا يوجد فتاة في الدنيا تسمع مديحاً وتغضب.

- لكني لست أمدحك..بل أقر بما أنت عليه.

- إذاً حاول أن تغفل عن أنفي.

- ولماذا؟ إنه أجمل أنف رأيته.

- بدأت تكذب! آلا ترى أنه أنف عربي بامتياز.

- ناديا........ أنت زوجتي.

- ماذا تقول؟

- أنت زوجتي. هل سمعت.

ضحكت ناديا ولم تعد تستطيع التوقف كأن نوبة هستيرية أصابتها على غفلة، فاحتار أيوب بأمره وظن أنها تسخر منه فانكمش على نفسه وأخذ يلملم شظايا قلبه الذي بعثرته خيبة الأمل.

تقدم النادل وبدأ بتقديم القهوة، أشعل أيوب سيجارته ورشف فنجانه دفعة واحدة. فجأة تعالى صوت أغنية إسبانية صدرت من جوال ناديا ففتحت حقيبتها وبدأت تتحدث وبعد ان أنهت وقفت وقالت :

- أمي تنتظرنا على الغداء لقد تأخرنا.

- اشربي قهوتك أولاً.

- سأشربها في البيت.

****

أخذ أيوب يمشي في رواق الطائرة بخطوات بطيئة ومثقلة، كان يحتاج ليكون لوحده فلم يستطع أن يعرف بعد لماذا ينكسر القلب ويتهدم؟ فجأة سمع صوتاً يناديه، مال برأسه فرأى وجه ناديا يطل من نافذة الطائرة، اقترب ليلامسه ويقبل عينيها لكنه شعر بدوار في رأسه فجلس بجانب النافذة وحضن وسادته وشيئاً فشيئاً أخذت عيناه تجولان بضياع حتى استسلم لنوم عميق.

- لماذا تأخرتما؟

- اسألي أيوب يا أمي..أجابت ناديا وهي تجلس على الكرسي.

احمر وجه أيوب من الخجل وعجز عن إيجاد إجابة مقنعة تطلق سراحه من ذلك الموقف المحرج، فحدق بصحنه وأخذ يأكل من غير أن يرفع رأسه.

قالت السيدة عائدة:

- أترين بأم عينك.. منذ جئنا إلى هذه المدينة وأنا على هذا الموال.. وحيدة ومنسية.

- ومن قال إنك منسية؟ كل ما في الأمر يا أمي أن أعماله ازدادت، أرجوك لا تستمري بمعاتبته.

- لن أعاتبه..اطمئني.

نظرت ناديا إلى أيوب وشاهدته على الوضعية ذاتها فأردفت:

- أنا أسمع أن الذي يحب يفقد شهيته أما أنت فما شاء الله تأكل بنهم.

لم يعرف أيوب ماذا يجيب وظل محدقاً بصحنه.

- أنظري يا أمي كيف يحمر وجه خطيبي..

- خطيبك؟ سألت السيدة عائدة.

- نعم أيوب خطيبي. أجابت ناديا ثم وجهت حديثها إلى أيوب:

- وما رأيك هل توافق؟

لم يعرف أيوب بماذا يجيب فأزاح كرسيه ووقف أمامها كمارد خرج من فانوس سحري، حملها وأخذ يطوف فيها بخطوات متسارعة وهو يصرخ:

- أحبك.. أحبك..أحبك.

- أنزلني... سأقع... ماما.. ماما قولي له أن ينزلني......

- قال السيد وجيه: الحب قوة.

- وقالت السيدة عائدة: الحب نعمة.

- وقالت السيدة خولييتا: الحب مسؤولية.

-16-

التفّ العمال الذين كانوا ينتظرون وصول أيوب حول السيارة الجديدة، وأخذوا يعاينون كل قطعة فيها ويسألونه عن جودتها وسرعتها وقوتها لكنه أجابهم:

- هذه السيارة ليست لي إنها لناديا. كفوا عن الكلام وباشروا العمل. ثم أخذ يمشي في المتجر ذهاباً وإياباً وهو ينظر إلى ساعته باستمرار.

تقدمت منه روسا وسألته:

- ما بك أراك قلقاً؟!

- لا.. لا.. أنا بخير.

- وهل تعتقد بأني أقتنع بهذه الإجابة! أنا أعرفك يا أيوب... شيء ما قد حدث.. هل أصاب السيد وجيه مكروه؟

- لا أبداً.

- أنظر إليّ..

- الآن وقت عمل يا روسا.

- قلت لك أنظر إليّ.

وضع أيوب وجهه قبالة وجه روسا وقال:

- ها قد نظرت..السيد وجيه لم يصب بأي مكروه اطمئني.

- أنت تحب يا أيوب.

- ماذا؟؟؟ أجاب وتسمر في مكانه.

- أنت تحب.عيناك لا تكذبان.

- أحب؟ عن ماذا تتكلمين...؟.

حاول أيوب أن ينسل ويهرب من مواجهتها لكنها التقطت ذراعه وأوقفته.

- هل هي جميلة؟ ما اسمها؟.

فجأة تخيل أنه محاط بخناجر تقترب من خاصرته تدفعه بقوة باتجاه روسا التي تحمل بيدها مشنقة بألف حبل لكنه لم يأبه، لم يخف، لم يخجل وأجاب بقوة وإصرار:

- ناديا.

- ناديا؟ قالت روسا بدهشة وبدأت تدور أمام عينيها كأرقام الروليت وجوه عديدة، ثم توقفت في النهاية على وجه واحد فقط، فسألت من جديد لكي تتأكد:

- ناديا ابنة السيد وجيه؟.

- أجل ابنة السيد وجيه.

عانقت روسا أيوب وتبللت عيناها بالدموع وأردفت بصوت يشبه الفرح والنور:

- هل تعلم أيها المغفل أني سررت بهذا الخبر،... يا إلهي كيف كبرت تلك الشيطانة بسرعة وأصبحت تحب.

- هل تعرفينها؟

- كانت تأتي أحياناً إلى هنا، أذكرها بلباسها المدرسي. أتزال جميلة؟

- أجمل ما رأت عيناي.

- يا إلهي كم أنا سعيدة.

- حقاً؟! ألست غاضبة مني؟

- ولماذا أغضب! الرغبة شيء والحب شيء آخر.. ثم حبك هذا يا أيوب انتصار لي. كم كنت أخاف عليك، أخاف على قلبك الشاغر أن يحتله حب كاذب.

- كانت نائمة حين خرجت من البيت، أريد أن أتصل بها لأسمع صوتها ولأكون الأول من يقول لها صباح الخير..اشتقت إليها.

- يا إلهي! لست أيوب الذي أعرفه.

- هل أتصل الآن أو بعد قليل؟ لعلها لا تزال نائمة!

- اتصل بها الآن حتى ولو كانت نائمة.. ستفرح لسماع صوتك.

سارع أيوب للاتصال بناديا والتحدث معها بينما وقفت روسا في زاوية المتجر تنظر إليه وتبتسم، وكانت خيوط شمس الصباح تخترق شعرها الأسود المتجعد.

****

أطفأ أيوب محرك السيارة وأسرع إلى الداخل وبينما كان يسير في ممر الحديقة بخطوات سريعة رأى ناديا تنظر إليه من نافذة الصالة فركض كمن يريد التقاط قلبه الذي تدحرج أمامه. فتحت ناديا الباب واتجهت نحوه.

- قال:اشتقت إليك.

- قالت: وأنا أيضاً.

- قال: لماذا الحب يقلب المرء رأساً على عقب؟.

- قالت: تقصد لماذا الحب يعيدنا إلى حياتنا الطبيعية.

- قال: لطالما كنت بلا اسم أو رقم أو عنوان.

- قالت: أحب فيك حزنك الشرقي لكنني أرفض أن تتطبع عليه.

- قال: وما العمل؟ طالما الحب يثير دائماً غبار الحزن القابع في قلوبنا.

- قالت: الحب لا يثير إلَّا عطر الزهور النامية في قلوبنا.

فجأة سمعا صوت خولييتا تنادي من الداخل :

- وهل ستكملان اليوم على عتبة الباب؟

- تعال لندخل. قالت ناديا وجرت أيوب من يده.

كانت السيدة خولييتا جالسة على الأرض تزين بهدوء شجرة عيد الميلاد وهي محاطة بعلب الكرتون التي احتلت مساحة كبيرة من صالة الاستقبال.

- تبدين كطفلة مليئة بالبهجة والسرور. قال أيوب وانحنى يقبل خدها.

- بالفعل، إن تزيين شجرة العيد يشبه علاجاً طبيعياً يريح النفس ويهدّىء الخواطر ويبعث الأمل.

- وأين بقية العائلة؟

- في الخارج! أرسلت عائدة ودانييلا لتزينا الحديقة.

- سأذهب لأرى ماذا تفعلان ربما تحتاجان مساعدتي!

- إذهب وعد بسرعة أريد أن أتحدث معك.

خرج أيوب إلى الحديقة بينما جلست ناديا بجانب السيدة خولييتا وانشغلت بتفريغ علب الكرتون من جديد.

- أريد أن أحدث خطيبك عن حادثة حصلت لي منذ زمن.

- عندما سرقت منك السيارة؟.

- يعرفها بالتفصيل منذ أول يوم تعرفت عليه أم كنت تظنين أنني سأسلم من لسان والدك!.

- تعرفين والدي جيداً فلا يزال على عادته ولن يغيرها فأحب شيء على قلبه مشاكستك والقتال معك...

- أعرف وأتمنى لو يبقى على عادته هذه فقط .

- تقصدين أن لديه عادات أخرى؟

- بصراحة أنا مستاءة جداً لوضع والدتك يا ناديا، أرجو أن لا تسيئي فهمي فأنا لا أنتقده، تلك هي حياته ويستطيع أن يعيشها بالطريقة التي يشاء ولا يهمني إذا كان على علاقة مع امرأة أخرى أو مع عشرين، بل إن الذي يقلقني حقيقة عدم تجاوب والدتك معي. لقد حاولت أن أوضح لها ببساطة أن الزواج لا يعني أن تتنازل المرأة عن هويتها ولا يعني أن تذوب أو تنصهر في مرجل الرجل، لكن للأسف تسمع وتحتفظ برأيها لنفسها.

- يا سيدة خولييتا أمي جاءت إلى هنا ولم يتجاوز عمرها الثامنة عشرة ولم تحاول أن تخرج عن تعاليم جدتي وجدي لها فيما يتعلق باحترام الزوج والنزول عند رغباته والعمل على مساعدته، ومع ذلك أراها أماً مثالية.

- أوافقك الرأي لكن طالما أرادت والدتك وقبلت بأن تدور في فلك والدك، أقلّه يجب عليها أن تعتبر نفسها كوكباً مستقلاً.أجابت السيدة خوليبتا ثم نادت على أيوب الذي دخل توّاً إلى الصالة وقالت:

- قل لي ماذا تعرف عن النبي دانييل؟

- دانييل؟ سأل أيوب بتعجب ونظر إلى ناديا.

- لا تتوقع مني أية إجابة، أنا لا أعرف شيئاً عنه. قاطعت ناديا وكأنها تعلن عن عدم مشاركتها في امتحان ما.

- أعتقد أنه قيد في بابل وأنه نجا من الموت .قال أيوب.

- بالضبط لقد نجا من الموت وعن هذه المسألة بالتحديد أريد أن أحدثكما، على كل حال سأجلب لكما قصته كاملة لتقرآها.

- أرجو أن لا تكون طويلة فأنا لست من عشاق القراءة. قالت ناديا.

- من هذه الناحية لا تقلقي ستلتهمينها في عشر دقائق. أجابت السيدة خوليبتا وتابعت :

-لقد كنت مثلك أجهل قصة حياته إلا أن الفرق بيني وبينك بسيط جداً فهو بنفسه فرض عليّ أن أقرأ سيرته.

- كيف؟ سألت ناديا بفضول.

- اسمعا وحاولا أن تساعداني. قالت السيدة خوليبتا ناظرةً إلى أيوب، حديثي موجه إليك بالتحديد.

- موجه إليّ؟ سأل أيوب باستغراب.

- ما حدث معي يبدو غريباً بعض الشيء، وإلى وقتنا هذا لا أجد تفسيراً واضحاً ومقنعاً له، المسألة تتعلق بابنتي دانييلا، فبعد أن وُلِدت أختها أنيتا نصحني الطبيب بأن أقوم بعملية ربط الرحم لأن أية ولادة جديدة ستعرض حياة المولود وحياتي للخطر، لم أستمع لنصيحة الطبيب بشأن العملية لكن في الوقت نفسه قلت لزوجي السابق إنني سأتوقف عن الإنجاب.

تعذرت محاولتي وحملت مرة أخرى وعلى مدار الأشهر الثمانية لم أشعر بأية اضطرابات أو كدر أو إزعاج، وقلت في نفسي هذا المولود سيكون طفلاً مميزاً، وذات يوم بينما كنت أنشر الغسيل وجدت كلمة دانييلا مطرزة أسفل منشفة بيضاء، سارعت وأخبرت زوجي بأنني سأرزق بطفلة وسيكون اسمها دانييلا، لكنني بقيت أفكر بمن وضع ذلك الاسم وكيف تم تطريزه على المنشفة ولماذا دانييلا وليس اسماً آخر؟ حينئذ بدأت أقرأ قصة دانييل وكيف نجا من الموت على الرغم من كل محاولات قتله.

- غريبة هذه الحادثة يا سيدة خوليبتا! ولم تعرفي من قام بتطريز الاسم؟ سألت ناديا.

- لم أعرف قطّ، وأتمنى لو أعرف، أقلّه كنت سأكف عن التفكير بالماورائيات وعن ذلك السر المجهول، حتى الطبيب تعجب من عملية الولادة فقد كانت سهلة جداً ولم تحدث أية مشاكل أو مضاعفات.

- وأنت بماذا تفكرين؟ كيف تشرحين ما حدث معك؟ سأل أيوب.

- لا أدري يابني! حتى الآن لم أجد كما قلت لك إجابة مقنعة إلا أنني قلت لابنتي دانييلا في السابق، وهي تحفظ ذلك تماماً، بأنها انتصرت على الموت مرتين، مرةً حين كنت حاملاً بها ومرة حين ولدت.

لم تنه السيدة خوليتا كلامها حتى دخلت السيدة عائدة ودانييلا إلى الصالة راكضتين وكان وجههما يشبه ورقة صفراء لا حياة فيها. وثب أيوب كالمجنون من مكانه، شد بيده على ذراع السيدة عائدة وسأل بصوت متصاعد:

- ماذا حدث؟

- سأتصل بوجيه.

- أخبرينا ماذا حدث.

بدأت السيدة عائدة بمكالمة زوجها وطلبت منه أن يأتي بسرعة بينما راحت دانييلا تخبرهم بأن سيارة سوداء كانت تتجول حول البيت وأن نوافذها السوداء منعت عنهما رؤية من بداخلها. حاول أيوب تهدئة السيدة عائدة، وأحضرت ناديا كأساً من الماء وقدمته لوالدتها طالبةً منها الجلوس على الأريكة. في هذه الأثناء توجه الحاضرون إلى السيّدة عائدة بالقول:

- لكن يا سيدة عائدة الأمر لا يحتاج إلى مثل هذا التوتر. فأجابت:

- هذه أول مرة ينقبض فيها قلبي.

- قالوا: ليس بالضرورة أن يكون بيتك الذي يرصدونه.

- قالت: في بلد الجريمة كل إنسان ضحية.

- قالوا: متى وكيف يرتكب مجتمع أخطاء ليستحق مثل هذا العقاب؟

توقّفت سيارة عسكرية أمام البيت، وترجّل منها خمسة عناصر من الشرطة، أحاطوا المكان. تقدم رئيسهم إلى بوابة الحديقة الرئيسة وقرع الجرس، فتح أيوب البوابة ودعاه إلى الدخول.

- سيدة عائدة أرجو أن تهدِّئي من روعك نحن دائماً في خدمتك، لقد قمنا بتعميم لون السيارة وموديلها على كل أجهزة الأمن، وشددنا المراقبة على مداخل المدينة.

- أشكركم من كل قلبي.

- علمنا بأن نوافذ السيارة كانت عاتمة لكن فقط للتأكد والتذكير هل لمحت وجه أحد ما؟.

- حاولت لكني لم أر شيئاً.

- اعتذر عن سؤالي.. أنا آسف.

- على العكس تماماً هذا عملك.

فجأة ترامى لهم صوت وقع أقدام. دخل السيد وجيه وكان برفقته رجل متوسط القامة عيناه أصغر من حبتي زيتون وبشرته داكنة كلون الكاكاو، ظل واقفاً في مكانه ينظر فقط إلى نوافذ الصالة وإلى الباب المفتوح على الحديقة.

عانق السيد وجيه زوجته وهمس في أذنها:

- لم أرك في حياتي متوترة وقلقة بهذا الشكل؟!.

- هذه أول مرة ينقبض فيها قلبي.

- لكن ماذا حدث بالضبط؟

وقبل أن تجيب السيدة عائدة علا صوت الجميع دفعة واحدة في محاولة لتقديم شرح عن الواقعة الغريبة وكانت أصواتهم تشبه أصوات الألعاب النارية، فجأة خيم صمت مطبق على المكان حين دخل أحد عناصر الشرطة التي أحاطت المنزل وقال لرئيسه:

- سيدي! لقد أوقفنا سيارة أجرة كانت تجول في المكان تقل شاباً أجنبياً.

- وأين هو؟

- مقبوض عليه.

- سأذهب حالاً لأراه.

خرج الملازم ولحقه السيد وجيه والرجل ذو البشرة الداكنة، وبقي الآخرون بأفواههم المفتوحة يتبادلون نظرات مليئة بالدهشة.

لم تمض دقائق معدودة حتى عادوا من جديد، كان الرجل ذو البشرة الداكنة يحمل حقيبة سفر، وضعها بجانب الأريكة وراح ينظر إلى نوافذ الصالة وإلى الباب المفتوح على الحديقة، ووقف الملازم بجانب السيدة خوليتا راسماً على فمه ابتسامة تختزل عبارة «المهمة أنجزت» بينما وقف السيد وجيه أمام باب الصالة وقال:

- لقد ألقينا القبض على المشتبه به، وسنقدمه إلى يد العدالة. تفضل وعرف عن نفسك.

دخل جهاد يجر رجليه ببطء خافض الرأس وكأنه مذنب بالفعل. صاح أيوب مذهولاً:

- جهاد؟ وانكب عليه يعانقه. كيف عرفت العنوان؟ ولماذا لم تخبرني من قبل؟

- اتصلت بوالدك وطلبت منه أن يظل الأمر سراً، أحببت أن أفاجئك ولم أتخيل أن المفاجأة ستكون من نصيبي.

- أهلاً وسهلاً بك. ونعتذر عما حدث. قال السيد وجيه.

- في الحقيقة يا سيد وجيه إن الذي يجب أن يعتذر هو أنا، فالبوليس يشكل الشخصية الأساسية في حياتي وإذا لم يرافقني أو يكون بجانبي دائماً فأنا لست أنا.

- قال أيوب: لو تعرف كم اشتقت إليك.

- قال الملازم: نحن في الخدمة.

- قالت السيدة خوليتا: جهاد وعد من الشرق.

- قالت دانييلا: سأعلمه الشعر الإسباني.

- قالت ناديا: صار أيوب يضحك من قلبه.

- قالت السماء: الأطفال يلعقون الدم السائل من أعناق القطط.
- قالت السيدة عائدة: قلب الأم لا يكذب.

-17-

حين سافر جهاد إلى القاهرة وضع نصب عينيه مهمتين أساسيتين دراسة الفن المسرحي وإقناع أمه بالعيش معه في البلد الجديد، وبعد أن وجد عملاً متواضعاً في مقهى شعبي على مقربة من مكان عيشه بدأ بادخار المال لإنجاز هاتين المهمتين، واعتاد في كل ليلة قبل أن يعود إلى غرفته لينام أن يسير وحيداً في شوارع العاصمة ليتعرف على أهم الأماكن، ويسجّل انطباعاته الأولية في دفتره الصغير الذي طالما حمله معه ، وكان يحلم أيضاً أنه استوقف الفنان عادل إمام ودعاه لتناول فنجان قهوة وتحدث معه مطولاً حول الفن والتمثيل والحياة.

وذات يوم حدث معه أمر غريب جعله يعتقد أن خيالاته أصبحت أقوى من الواقع المعيش، وأنه إذا بقي على هذا الموال سيكمل إقامته في مستشفى المجانين، فقد شاهد ولأول مرة أمام عينيه حصان طروادة بينما كان يمشي في ساحة قصر النيل.

- إذاً تقسم بأنك شاهدت حصان طروادة! سألت ناديا.

- أجل أقسم.

- وماذا فعلت؟

- لا شيء، تناسيت تلك الرؤية وتابعت قيادة حياتي بشكل روتيني.. من المقهى إلى غرفتي ومن غرفتي إلى المقهى، وبعد بضعة شهور من نتائج الانتخابات الرئاسية قررت أن أوجع رأس أيوب فلم أشأ البقاء ولا العودة إلى مدينتي.

- أنت دائماً توجع رأسي سواء في اختفائك أم في حضورك.آه تذكرت! خابرت والدي اليوم من المتجر، أمك بألف خير وسعيدة كوننا التقينا من جديد والجميع يهدونك سلامهم، وأحمد الله أن زوجة الأستاذ سهيل عادت إلى المنزل.

- وهل افترقا أصلاً؟

- نعم.

- وما السبب؟

- الوضع المادي...وهل يوجد سبب غيره.

- زوجته أكثر واقعية منه.

- لقد ضغطت عليه ليقترض مبلغاً من البنك وفتحا متجراً لبيع الأدوات المدرسية والكتب... على سيرة العمل ما رأيك بمرافقتي غداً إلى المتجر.

- إذهب لوحدك.. سأبقى في المنزل مع ناديا والسيدة عائدة.

- مضى يومان ولم تغادر غرفتك! يا ترى هل تفكر بالعمل أم قدمت فقط للسياحة ؟.

- لا تستعجله يا أيوب. أردفت ناديا.

- لكن لا أريده أن يضيع الوقت كما ضيعته أنا..لقد بقيت شهرين لم أغادر هذه الصالة، دعيه يسأل والدتك وهي ستخبره بصدق كلامي... التفت أيوب حوله ثم سأل ناديا مستغرباً:

- آه بالحق لماذا والدتك استأذنت باكراً لتنام.

- باكراً؟ الساعة يا عزيزي أصبحت الثانية صباحاً.

- لقد سرقنا الوقت، سأستأذن منكما أيضاً، غداً لدي عمل كثير.أردف أيوب معانقاً ناديا ثم تابع: وأنت يا جهاد حين تقرر أن تنام لا تنسَ أن تطفئ الضوء كعادتك.

- على مهلك! أولاً من قال لك إني سأضيع الوقت، ثانياً هل تتخيل أنني قدمت للسياحة! يا صديقي إنها بضعة أيام فقط سأقاسمك فيها غرفتك وبعدها ستساعدني على إيجاد عمل وبيت للإيجار.

- هذا موضوع سابق لأوانه يا جهاد وأنا سأحكي مع والدي بخصوص ذلك، عليك أن تبحث أولاً عن الطريقة التي تدرس فيها الفن المسرحي وتقنع والدتك بالمجيء إلى هنا. قالت ناديا.

- من أين أتيت بخطيبتك هذه يا أيوب؟ يا إلهي تتكلم مثل شخصيات الصور المتحركة. سد جهاد أنفه بيده وتابع يقول مقلداً: هذا موضوع سابق لأوانه.. سأحكي مع والدي بخصوص ذلك.. عليك دراسة الفن المسرحي....

- أنظر إليه يا أيوب كيف يهزأ مني!

- لا أهزأ بل أمازحك، ثم هل تعرفين أنك أجمل فتاة شاهدتها عيناي... صدقيني أنت لا تنتمين إلى أهل الأرض!.

- هي أم أنت الذي لا ينتمي إلى أهل الأرض! أجاب أيوب ثم سأل متعجباً: يا أخي قل لي عن شخص عاقل يدعي أنه رأى حصان طراودة أمام عينيه...

لم يكدْ أيوب ينهي كلامه حتى فُتح باب الصالة ودخل منه السيد وجيه. هرعت ناديا لاستقباله معانقةً وأخذت تقبل خديه. سأل السيد وجيه:

- ماذا تفعلون في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل.

- نتحدث أو بالأحرى نتقاتل. أجابت ناديا.

- تتقاتلون؟ تتقاتلون على ماذا؟

- جهاد يسخر مني.

- لا أصدق! لأنه لا يوجد شخص في العالم يجرؤ على أن يسخر من طبيبتنا. قال السيد وجيه وأخذ يداعب شعر ابنته.

أدخلت تلك الكلمات الريبة إلى قلب جهاد ووجد نفسه مذهولاً لا يعرف بماذا يجيب، فسارعت ناديا بالقول وهي تطمئنه بغمزة من عينها:

- والدي يمازحك أيضاً؟

قال أيوب:

- في الحقيقة يا عمّ وجيه كنت سأذهب لأنام قبل أن تحضر بلحظات، ولهذا أعتذر من مشاركتكم السهرة.

- إجلس. الحياة قصيرة فلا تستهلكها في النوم، هذا أنا لا أنام إلا ثلاث أو أربع ساعات في اليوم فلماذا لا تكون مثلي، ثم كنت تلح عليّ بأن نجتمع، وحين اجتمعنا ستعتذر! قال السيد وجيه وهو يجلس على الأريكة بجانب ابنته ثم سأل مستفسراً:

- عفواً! لا أدري إذا كان وجودي بينكم يزعجكم ؟.

- على العكس تماماً. رد الجميع على شكل كورس، ثم أضافت ناديا بلهجة لطيفة.

- كان جهاد يقص علينا حكايته عندما كان في مصر.

- يبدو أن تأثير الدومينو قد وصل إلى كل المدن. قال السيد وجيه.

- لهذا السبب وعدته بأن نجد له عملاً... أرجوك ساعده يا والدي.. هنا يستطيع الاستقرار مع والدته....

- وما رأيك يا أيوب بالذي يحدث؟ سأل السيد وجيه وكأنه لم يسمع ما قالته ابنته.

- كما أشرت حضرتك إن تأثير الدومينو قد وصل إلى كل المدن.

- وهل ترى مثلي أن مستقبل المنطقة سيكون أفضل؟

- أعتقد أنها بداية انهيار الإنسان.

- ولماذا تنعتها بالانهيار؟ يبدو أن تشاؤمك وضع على رأسك قبعة اللارؤية. اليوم سترفض كل شيء، وبعد فترة قصيرة ستقبل وبمهارة كل شيء وستضحك على نفسك، وستعترف أن الحياة ليست تلك التي قرأت عنها في الكتب بل تلك التي لم يكتب عنها بعد في أي كتاب. المجتمعات يا أيوب تعرف ما تحتاجه وتعرف أيضاً كيف تنظم نفسها، أليس كذلك يا جهاد.

- أنا شخصياً أخالفك الرأي. لأنه عندما يقدم للشباب السلاح ليضعونه على أكتافهم أو بجانب خاصرتهم، أو حين يتحول إلى إيديولوجية ما، فمن الصعب جداً سحب السلاح منهم فيما بعد. أجاب جهاد.

- لكن السلاح من أحد شروط التغيير شئت أو لم تشأ... المواطن يريد حريته، يريد أن يمارس ويطبق إنسانيته على أرض الواقع فلماذا تحاول التفتيش عن مبررات لا وجود لها..هل تخاف من أن تكون حراً؟

- هذا ليس تغييراً بل إنه امتداد للسياسة نفسها، لا يزال الممثلون أنفسهم إلا أنهم يلعبون أدواراً جديدة، ولا تنسَ أننا نحن اليوم ما كنا عليه بالأمس ولن نشفى بعد بالسرعة التي تتخيلها.

- إسمح لي أن أقول لك يا عم وجيه إنني أقف في صف جهاد فالذي تعبر عنه لا يصلح لأن يكون قاعدة عامة، وبرأيي سيعلن هذا الواقع عن تحطيم الإنسان في المستقبل ليس بسبب الرأسمال الذي تجرد من كل شيء إنساني بل أيضاً بسبب الأحزاب الدينية الجديدة.

- هذا ما كنت أحاول أن ألقي الضوء عليه. قال جهاد مقاطعاً ثم واصل حديثه:

أنا لست ضد دخولنا في التطور الرأسمالي ولست ضد تحول التيار الديني إلى لاعب قوي على الساحة السياسية، لكنني أرى أن الرأسمالية اليوم فقدت إرثها الأخلاقي بالكامل أما الأحزاب الدينية فنستبدل الحوار بالسلاح سواء وقت الحرب أو وقت السلم.

هز السيد وجيه رأسه وقال باقتضاب:

- أعود وأكرر بأن المجتمعات بطبيعتها تعرف ما تحتاجه وإذا اختارت هذا الطريق لأنها تريده ولا تريد غيره.

- ليست المجتمعات يا سيد وجيه التي تختار، بل السيستيما هي التي تختار لها الطريق الذي تريده وينسجم مع مصالحها المتبدلة دوماً. قال جهاد.

نظر أيوب إلى ناديا فوجدها نائمة، نهض وأحضر وسادة كانت ملقاة على الأريكة ليضعها تحت رأسها إلا أن السيد وجيه استوقفه وقال:

- الأفضل لها أن تنام براحة في غرفتها.. يبدو أن السياسة لا تستدعي انتباه طبيبتنا. على كل حال للحديث تتمة، تصبحان على خير.

أيقظ السيد وجيه ابنته وغادرا الصالة، وظل أيوب ينظر إلى أميرته الناعسة التي انهال شعرها على ظهرها كخيوط من ذهب حتى غابت عنه، ثم صعد مع جهاد إلى غرفة نومه التي لم تعد بسرير واحد بل بسريرين ولم تعد مليئة بحلم واحد بل بحلمين والتي لم يعد ضوء مصابيحها يخفت ليلاً.

- قالت السماء: كل البلاد ستتشابه فيها النظم الاجتماعية والسياسية يقودها رأسمال وحشي يحول الإنسان إلى مستهلك بربري.

- وقال والد أيوب: الرأسمالية والإصلاح الديني هما على ترابط وثيق؛ الاثنان يبرران نجاحهما بأنهما انتصرا على الديكتاتورية.

- وقال الأستاذ جمال: «يصعب على الإنسان أن يعرف من أين أتى وماذا يريد وإلى أين يذهب، عندما نتصارع في ميدان من رمل كأولئك الرومانيين ونقع على الأرض مخضبين بالدم حتى لم تعد أقدامنا تقوى على الوقوف ونرى الإمبراطور يشير بإبهامه إلى الأسفل ليعلن عن موت أحدنا... ننظر إلى بعضنا ونعرف حينها أن الديمقراطية هي التي سوف تموت».

-18-

- ... لكن والدتك بالفعل تختلف عنك.

- ممكن! أجابت دانييلا بخجل. وأخذت تحرك حافة فنجان القهوة برأس سبابتها.

- وماذا تقصد بالاختلاف؟ سألت ناديا.

- أنظري إليها وستعرّفي بنفسك.. على عكس والدتها تماماً قليلة الكلام خجولة..

- مهلاً..مهلاً من؟ دانييلا؟ يبدو أنك لا تعرفها حتى الآن. عندما يتقن جهاد اللغة سيصاب بالصداع من كثرة كلامها.

- سمعت اسمي! عمَّا تتحدثون؟

- الظاهر أن صديقك أيوب تنقصه التجربة ليعرف النساء. أجابت ناديا.

- أصبتِ. فلم يتعرف على فتاة في حياته، أنت حبه الأول والأخير.

- سأبدأ أشك بأرائك؟

- لماذا؟ ما الخطأ الذي اقترفته بإجابتي؟

- لا شيء سوى دفاعك الأعمى عن صديقك من دون معرفة الموضوع الذي نتحدث عنه!

- وعن ماذا كنتم تتحدثون؟

- الآن أعجبتني... اسأل أولاً ثم دافع كما تشاء. كنا يا محامي الدفاع نتحدث عن خطيبتك.

- خطيبتي؟

- أجل خطيبتك دانييلا. ولماذا تستغرب.

- في الحقيقة لم أرَ بعد نساءً كنساء أمريكا اللاتينية..هنا الحب ليس شرارة نار بل هو بركان متفجر.

- إذا لم يكن هكذا فاعطني إذاً تعريفاً آخر عن الحب؟ سألت ناديا.

- الالتزام ليس سهلاً يا صديقتي. قال جهاد.

- ومن يتحدث عن الالتزام؟! نتحدث عن الحب.

- الحب التزام يا ناديا.

- بالضبط! أوافقك تماماً. وأعتقد أيضاً أنهما وجهان لعملة واحدة، لكن البعض يفصل بينهما بخيط خفي وذلك تحت الشعار ذاته.... أن الحب التزام.

- لم أستوعب فكرتك بعد. سأل جهاد.

- أفكارها غريبة ستتعود على استيعابها شيئاً فشيئاً كما تعودت أنا. قال أيوب ثم أضاف:

-دعونا نتشارك جميعاً في الحوار، أقلّه نقدم لدانييلا فكرة عامة عن الموضوع.

- الآن سأترجم لها لا تقلق، وسأنهي فكرتي بجملة واحدة. قالت ناديا وأردفت: ما أعنيه أنه يوجد بعض الأشخاص يعتقدون أن كل حب يحمل فاتورة سيستحق موعد دفعها على المدى القصير وهذا يولّد عندهم الخشية من الالتزام، لهذا السبب يؤجلون الحب وفي أغلب الأحيان يتخلون عنه... هل سألت نفسك لماذا دانييلا هنا بيننا؟ هل تعتقد إنها جاءت لتقضي بضع ساعات خارج المنزل لتروح عن نفسها؟ ألا تعتقد أنك أيقظت في قلبها أحاسيس جياشة وعاطفة غير مسبوقة وقررت أن تبقى بجانبك؟.... ربما ستكشف الأيام أنك لست الرجل الذي حلمت به وتخيلته خطيباً لها، ربما تعارض أفكارك وقناعاتك بعد أشهر قليلة وتتخلى عنك! إلا أنها عندما شعرت بالحب أظهرته وأعلنته ولم تفكر لحظة في حجم مسؤوليته أو قيمة فاتورته.

التفتت ناديا نحو دانييلا وأخذت تتكلم معها بينما راح أيوب يقول:

- لا يستطيع رجل أن يغلب امرأة. طردتنا من الجنة لتتحكم بنا على الأرض.

- المرأة لم تطرد أحداً، لقد كان قرار الخروج من الجنة قراراً مشتركاً لأنهما فضّلا المعرفة على الخلود. أردفت دانييلا:

- وأنا أؤيد فكرتك هذه. أضاف جهاد.

- يبدو أنه توجد قواسم مشتركة بينكما. قالت ناديا واستمرت تقوم بدور المترجمة.

- يدفعني التفكير أحياناً إلى رفض وجود التفاحة أصلاً، حواء لم تقدم تفاحة ليأكلها آدم. تابعت دانييلا.

- بالضبط، أوافقك الرأي أيضاً. قال جهاد.

- لكن المعترف به أن آدم أكل من التفاحة. أردف أيوب.

- هذا هو الدارج لكن ليس بالضرورة أن يكون حقيقياً. أعتقد أنه إبداع أحد الفنانين التشكيليين. أجابت دانييلا.

- ويجب أن يكون أوروبياً. أضاف جهاد.

- ولماذا أوروبي بالتحديد. سألت ناديا.

- لأنني أرى بلادكم تشبه الجنة، جغرافيا ساحرة، غابات وأنهار وبحيرات وتنوع بيولوجي لا مثيل له. ولو تم اكتشاف أمريكا قبل وصول كريستوفر كولومبوس بمئات السنيين لكان الفنانون التشكيليون قد رسموا حينئذثمرة المانجا وليس تفاحة.

- ولماذا حددت المانجا؟ سأل أيوب ثم تابع:

- يوجد أيضاً أناناس وكيوي وبابايا...

- لأنـ..لأنني.. قاطع جهاد بتعثر ثم نظر إلى عيني دانييلا وقال: لأنني كنت «أحب المشمش دي الوقت أموت بالمانجا».

لم تفهم دانييلا بالضبط ما قصده جهاد بالرغم من محاولات ناديا وأيوب ترجمة عبارته بطرق مختلفة، ومع ذلك رأت جهاد قد أزهر كشجرة لوز حطت عليها فراشات زرقاء.

رنّ هاتف أيوب الخليوي، وبينما كان يخرجه من جيبه قال لناديا: يبدو أن والدك يريد الاستفسار عن سير العمل!

لكن لم يكن السيد وجيه من يهاتفه.

- نعم أنا أيوب. .روسا؟ كيف حالك؟.. مَنْ، ماري لوس شقيقة روسا؟ هل تمازحيني؟.. عفواً لم أسمع....خطير..لا تريدين أن يعلم أحد... شقيقتك...حتى شقيقتك! ولماذا لا تخبريني الآن......حسناً.. غداً الساعة العاشرة صباحاً.

أنهى أيوب المكالمة وظل واقفاً ككومة من الأحجار يعيد في ذهنه كل كلمة سمعها. سأل جهاد:

- من كان يكلمك؟

- .....

- والآن لا تقل لي إنك ستدافع عن صديقك؟ سمعت بإذنك فتاة تريد مقابلته! قالت ناديا.

- يبدو أن مشكلة ما قد وقعت، أنا أعرف أيوب جيداً. أردف جهاد بقلق ونهض عن كرسيه ووقف بلصق صديقه وسأله: قل لي ماذا حدث؟

- لا أدري؟ غداً سأعرف. أريد أن أعود إلى المنزل.

أخذت ناديا ممازحةً تمطر أيوب بأسئلة متهكمة حول علاقته العاطفية الجديدة بينما كانت تقود السيارة، وشاركها جهاد متخذاً دور بيلاطس في غسل يده، غير مكترث بالدفاع عن صديقه بينما ظل أيوب أسير لغز لم يستطع رغم جهد أن يحله.

حين دخلوا المنزل صاحت السيدة خولييتا التي كانت جالسة في الصالة تشاهد التلفاز مع السيدة عائدة:

- تعالوا وشاهدوا كيف امتد العنف إلى جميع مدنكم! منذ ساعة ووسائل الإعلام تبث أحداث الوقائع المؤسفة كأن المنطقة تحولت إلى بركان يقذف ناراً وموتاً.

- هذا ما كان متوقعاً. علق جهاد.

- للأسف مدننا لم تعد تعرف الرحمة. قال أيوب ثم اتجه نحو المطبخ.

- وماذا نقول نحن! عقود من السنين مرت ونحن على الموال ذاته، موت يومي لا علاقة له لا بصراعات سياسية ولا دينية. قالت السيدة خولييتا ثم سألت أيوب: أين ذهبت أنا أتكلم معك؟.

- هنا.. هنا.. لحظة واحدة سأشرب كأس ماء. أجابها أيوب.

- أنا بصراحة لا أعرف إلى حد الآن ما هو هدف العديد من السياسيين والقضاة والمنظمات غير الحكومية من دعوتهم إلى أنه من غير الإنسانية وضع المجرمين في السجن؟!. تابعت السيدة خولييتا شاكيةً.

- وماذا عن الحق في الحياة؟ هل نسي أو تناسى أولئك السياسيون والقضاة الوجه الآخر للحقيقة! تساءلت السيدة عائدة وأضافت: بالفعل العالم يسير بالعكس.

- قرأت أخيراً كتاباً لأحد الباحثين في القانون في أمريكا اللاتينية يؤكد على صحة كلامك يا سيدة عائدة. قالت دانييلا واستطردت:

- ينوّه الكاتب بشكل أو بآخر بمسالة تخلي المجتمعات عن سيرها في الاتجاه الصحيح، فقد أوضح أن التقدم العلمي للحضارة لم يستطع أن يحقق مجتمعاً عادلاً، وقارن بين مجتمعنا اليوم وبين قبيلة «التشاجان» المكسيكية التي تحكمها قوانين لها مدلولات اجتماعية ونفسية وثقافية وإنسانية حقيقية وثابتة بالرغم من تأخرها عن التقدم العلمي. تخيلوا أنه عندما يقتل أحدهم الآخر فإن القبيلة تطرده وتطرد عائلته لمدة تتراوح بين سنة وخمس سنوات وذلك لأنه لم يعتدِ على الضحية فحسب بل اعتدى على مجتمع القبيلة بأكمله.

- هذا يا يا ابنتي ما أطالب به. يجب علينا أن نعيد النظر بقوانيننا المدنية وجعلها أكثر إنسانية وملتصقة بشدة بالنسيج الاجتماعي وليست خارجة عنه. أضافت السيدة عائدة.

- أعتقد أن ذلك قد يساهم في إيجاد حل للصراعات الاجتماعية المتفاقمة التي تكبر يوماً بعد يوم ككرة الثلج، إلا أن الواقفين على تشريع القوانين من مصلحتهم إرجاع المجتمعات إلى شريعة الغاب. قال جهاد.

- دائماً يتعلق كل حدث عندك بمؤامرة ما، يا أخي متى سوف تتخلى عن نظريتك هذه. قال أيوب متهكماً.

- أنا لم أتكلم قطّ عن مؤامرة، وكل ما أريد توضيحه أن السيستيما تحاول تحقيق مشاريعها حسب ما تقتضيه مصلحتها، ثم لنفرض إذا كان وراء أي صراع ما مؤامرة، أليس وراء تحقيق سلام ما مؤامرة أيضاً؟ هل المؤامرة هي رفيقة الصراع فقط؟ ثم أنظر ما يقوم به الرأسمال اليوم؟ لقد خلق سواء في وقت الحرب أم في وقت السلم عناوين مختلفة عن الاحتياجات الرئيسة التي تتطلب من كل كائن حي الحصول عليها من أجل استمرار عيشه، واستطاع السوق إقناع المستهلك بأنها احتياجات ضرورة وأساسية، وأن خياره الوحيد لاستمرار عيشه المتوازن يتعلق بتلبية تلك الاحتياجات.

- وما الجديد في الأمر كلنا نعلم ذلك! تابع أيوب تساؤله بسخرية.

- ما بك يا أيوب ماذا أصابك؟ سأل جهاد بتعجب وأكمل:

- يبدو أن الاتصال الذي تلقيته جعلك أكثر عصبية! يا أخي أنا لا أتكلم عن جديد أو عن غير جديد، أردت فقط الإشارة إلى أن السوق تلبيه احتياجات أكثر خطورة.. هل تعتقد بوجود أوجه اختلاف اليوم بين الحركات التحريرية والجماعات الإرهابية، لا يا صديقي لا يوجد فرق بينهما! الاثنان يعملان لخدمة السيستيما وخدمة السوق.

لم يجب أيوب، فقد شعر للحظة أنه يريد المشاجرة وليس الحوار وفضّل الخروج إلى الحديقة والاختلاء بنفسه... ألقى ببصره باتجاهات مختلفة كمن يبحث عن طريق آمن يساعده على الفرار من تهديدات تلاحقه وتقترب منه شيئاً فشيئاً، وطافت أسئلة عديدة في رأسه...هل يا ترى عرفت

ماري لوس بعلاقته السابقة مع شقيقتها؟ هل تريد ابتزازه وتدمير حبه الجديد؟ ما سبب ظهورها في هذا الوقت؟ لماذا طلبت منه السرية التامة؟ لماذا تخبئ عن شقيقتها مقابلتها له؟.

لكن صوت ناديا التي نادته من الداخل جعله يؤجل كل إجابة مقنعة.

-19-

عندما حلَّ الصباح امتلأ قلب أيوب هماً وكآبة. لم يعرف كيف يبدأ يومه، نظر في المرآة فرأى وجهه ملبداً كسماء شتوية وعينيه تلوح فيهما نظرات حزن واستسلام ويأس.

ارتدى ثيابه على عجل محاولاً أن لا يوقظ جهاد من نومه العميق ومضى يجر قدميه بتثاقل إلى المتجر.

كان الوقت لا يزال مبكراً، اتجه إلى كافيتيريا قريبة ليشرب قهوته وينتظر وصول عماله ووصول روسا، وأخذ يتصفح الجريدة إلا أن أفكاره ظلت تدور في مسارات لا تعرف اتجاهات محددة. فجأة وقف رجل عجوز أمامه وسأله:

- هل تذكرني؟.

أجاب أيوب:

- رأيتك من قبل..لكن أين؟ لا أعرف.

- قبل أشهر أخبرتك عن قصص مدينتي، هل نسيت؟

- مدينتك؟ سامحني يا سيدي ذاكرتي مصابة بعطل هذه الأيام.

- كنت ألاحق جوبيتر الذي قدم على غيمة و...

- آه تذكرت الآن. أجاب أيوب ثم سأل بلهجة فيها خليط من رعب وحذر:

- لكن ذلك كان حلماً! كيف خرجت من الحلم؟ كيف خرجت من حلمي؟ من أنت؟ يا إلهي كيف يحدث هذا... من أنت؟.

- ما بك يا أيوب؟ لماذا كل هذه العصبية؟ إشرب قهوتك بهدوء ولا تخف.

- وماذا تريد مني؟

- أن لا تسمح لهم بتحويلكم إلى عناكب أو إلى ثمار أشجار توت أو إلى ورود حمراء. أجاب الرجل العجوز بهدوء.

- قلت لي هذا سابقاً.. في الحلم.. أليس كذلك؟ ولم أفهم! والآن تكرره من جديد.. في الواقع.. ولا أفهم..أرجوك أخبرني بوضوح ماذا تريد مني؟

- أن تكون مثلي.

- مثلك! أجاب أيوب بارتباك وأضاف: عجوز يشتهي الموت ولا يموت، يلاحق إلهاً كظل غير مرغوب فيه، يفسر عالماً ولا يغيره.

- صدقت. لا أنا ولا أنت نستطيع تغيير شيء، وقد يختلف تفسيرك للعالم عن تفسيري له لكننا نتفق على حبنا للحياة. وهذا ما أتوقعه منك! فلا تسمح لهم بتحويلكم إلى عناكب أو إلى ثمار أشجار توت

أو إلى ورود حمراء.. لا تسمح لهم بتحويلكم إلى شهداء... كن أنت الراوي لحكايا وقصص مدينتك مثلي أنا، ولا تدعهم يسرقون منكم التاريخ مرتين.

نهض أيوب ولم ينبس ببنت شفة ورمى على الطاولة بضعة نقود ومشى، ولحقه الرجل العجوز حتى وصلا إلى نهاية الطريق وتبادلا نظرات صامتة وافترقا.

وامتلأت نفسه فجأة مرارة وكمداً حين تقاذفت صور روسا في رأسه ككرات مطاطية، ولم يستطع تحديد ما إذا كان يخاف عليها أو يخاف منها، وبدت خطواته تتسارع تارةً، وتارةً أخرى تقف على رصيف الطريق رافضة الاستمرار في سيرها.

وعلى عجلة أوقفه رجل مأخوذ بنشوة الخمر يطلب منه نقوداً، حاول أيوب تجنبه إلا أن الرجل شدّه من يده وتوسل بأن يعطيه مالاً. التقط أيوب من جيبه ما تبقى من نقود ورماها أمامه بنزق ومضى بينما ظل الرجل واقفاً يترنح يميناً وشمالاً غير قادر على أن يوازن جسده.

أشعل أيوب سيجارة محاولاً تهدئة أعصابه وعاد بخطى سريعة نحو المتجر، كانت شمس الصباح تلقي ظلاً امتلك المدينة خلسةً وتلقي بأشعتها دفئاً حنت إليه طويلاً بعض الكلاب الشاردة المتسخة التي لا مأوى لها، والتي تهرول بتثاقل على أرصفة الطرقات.

دخل المتجر وجلس على أريكة ينتظر قدوم عماله، كان يريد أن يمر الوقت سريعاً ليعرف السر الذي تخبئه تلك المرأة التي ظهرت فجأة في حياته.

التقط هاتفه الخليوي وعزم الاتصال بروسا لكنه لم يفعل وفضل الانتظار، وعاد رأسه يدور في حلقة مفرغة، شعر باختناق ولم يعد يحتمل تلك الوضعية الجديدة التي حولته بأمر من مجهول إلى رهينة لا رأي لها ولا قرار، ومنعته من ممارسة حياته على الطريقة التي يحبها ويرغبها.

وقف العمال الذين جاؤوا فرادى عند باب المتجر يتهامسون بصمت ويتساءلون عن الأسباب التي جعلت أيوب يفتح المتجر باكراً وينزوي وحيداً في زاوية غير آبه بما يحدث في الخارج، وحين أخبروا روسا عند وصولها لم تتأخر عن التحدث مع أيوب رافضة أن تصبح مثل الآخرين شريكة في صمتهم.

- ما بك يا أيوب. سألته وهي تداعب شعره.

- لا شيء.

- ولماذا تجلس هنا وحيداً؟ أخبرني ألست صديقتك؟

- هل تعرفين شيئاً عن ماري لوس؟

- ماري لوس شقيقتي؟

- نعم شقيقتك.

- لماذا؟ أقصد لماذا تتذكرها الآن!

- أجيبي عن سؤالي فقط. قال أيوب بنبرة صارمة.

- لا أعرف... منذ خمس سنوات أو اكثر لم أرها..لقد أخبرتك... لكن ما الجديد في الأمر؟

- ألم تتصل بك البارحة أو قبل البارحة أو قبل شهر؟

- لا لم تتصل ولا أعرف أي شيء عنها. ماذا حدث يا أيوب، أسئلتك ليست طبيعية؟ وعصبيتك هذه تنذر بالشر.

- اسألي نفسك وأنت تعرفين من ينذر الآخر بالشر... ماذا فعلت لك لأستحق كل هذا العقاب؟

- أنت مجنون يا أيوب. ما الذي تقوله؟ أعاقبك؟ أعاقبك على ماذا؟ لقد كنت ولا أزال صديقتك التي تخاف عليك وتتمنى نجاحك في الحياة.

- غريب أمرك يا روسا! أي نجاح يمر عبر تدمير علاقة حب ستتوج بالزواج؟

- لا أفهم كلامك ؟

- تعلمين جيداً ماذا أعني؟

- أقسم لك بأني لا أعرف عمَّا تتحدث.

- إذا كنت لا تعرفين فمن يعرف إذاً!

شدت روسا بيدها ذراع أيوب وهزته كمن يفرغ كيس طحين وقالت بلهجة آمرة:

- أخبرني ما الذي يدور في رأسك من غير لف ولا دوران؟

- أنت وشقيقتك العظيمة تريدان ابتزازي.

- قلت لك بأنني منذ خمس سنوات لا أعلم عنها شيئاً بل لا أعرف ما إذا كانت أصلاً على قيد الحياة...

- أنت تكذبين. قال أيوب مقاطعاً.

- أنا لا أكذب عليك يا أيوب، ولست بحاجة لذلك، يبدو أن مساً أصاب رأسك، إذهب إلى طبيب نفسي قبل أن تفقد عقلك بالكامل.

- أنا أم أنت يا ابنة الشيطان.

حملت روسا صحن السجائر وهمت بقذفه في وجه أيوب ثم تراجعت عن قرارها وصرخت بصوت متهدج مصحوب بالغضب والحنق:

- أنت لا تستحق عطفي، أنت شخص مليء بالقاذورات، أنت أسوأ رجل رأيته في حياتي. ثم أدارت ظهرها وانصرفت خارج المتجر بخطى ثابتة وواسعة وكانت مشيتها تشبه موسيقى تطغى على ضوضاء السوق.

وظل العمال واقفين دون حراك، مذهولين من تلك المشاجرة المفاجئة التي وقعت بين صديقين حميمين والتي لا تختلف في مستواها عن مشاجرة سكيرين غريبين في طريق عمومي.

ولم يحرك أيوب ساكناً. نظر إلى ساعته وشعر أن كل دقيقة تمر عليه كأنها سنة، توجه نحو الباب الخارجي يتأمل حركة الناس والسيارات ويستنشق هواء يعيد رئتيه إلى عملهما الطبيعي بعد أن تأكد أنه أضعف من الأحداث التي تعترضه وانه لا يستطيع السيطرة على انفعالاته.

فكر بأن يتصل بصديقه جهاد ويوقظه من نومه ليخبره عن الورطة التي وقع فيها ويطلب منه أن يرافقه إلى موعده مع ماري لوس لكنه تذكر تحذيراتها بأن الموضوع يخصه فقط ولا تريد أن يعلم أحد غيره.

وظل يروح جيئة وذهاباً سارحاً في عالم جديد سقط عليه فجأة، ولم يحاول عماله التدخل أو طرح أية مساعدة واكتفوا بالقيام بواجباتهم.

مرّ الوقت وتلقى أيوب اتصالاً من ناديا تخبره بأنها ستذهب إلى الخياط كما اتفقا ليأخذ لها قياسات فستان الخطبة، وسألته عن موعده مع شقيقة روسا، وأجابها مرتبكاً بأنه سيلتقي معها بعد نصف ساعة وطلب منها أن تختار أجمل قطعة قماش.

وأنهى أيوب المكالمة الهاتفية وأمر عماله بإغلاق المتجر وتوجه إلى المكان الذي اختارته ماري لوس للقائه، وفي الطريق انفرجت أساريره لوهلة، لكن سرعان ما غلبه الخوف.

كان حائراً ومشوشاً ولم يعرف ما إذا كان يبتعد عن جحيم ينذر بالهلاك أو يقترب منه.

-20-

هبطت الطائرة في مطار مدريد بعد أن تم الإعلان عن أنها سوف تستأنف رحلتها من جديد بعد ساعتين ، نزل جميع الركاب وراحوا يجرون أجسادهم المتعبة التي أضنتها ساعات السفر الطويلة صوب صالة المطار كعبيد مقيدين بسلاسل من حديد.

أخذت عينا أيوب تحدقان في الصالة وأهاب به شعور باطني على غفلة بأن ينسى كل شيء ويدرج أيامه التي تشبه في مرارتها طعم العلقم في صفحات النسيان، لكنه لم يستطع ولم يقدر على تجاهل صوت قلبه الذي يدق كل ثانية كأجراس الكنائس.

حاول أن يصرخ أو أن يخرج من صدره شيئاً يشبه الصراخ لكنه تمالك نفسه وبدأ يلامس كل كرسي يراه في طريقه ويطبع يده على الجدران محاولاً أن يلاقي ما تبقى من رائحة يد ناديا، وشعر بجفاف في فمه واشترى قنينة ماء وشرب حتى أتعبه الشرب ثم جلس على مقعد وراح يبلل يديه بالماء ويمسح على وجهه وشعره، والتقت عيناه مصادفةً بعيني طفلة صغيرة جالسة بجانب أمها تنظر إليه وتقهقه بضحكات متواطئة تؤكد أنها عثرت على صديق حقيقي مستعد لأن يلعب معها بجنون، ويكسر جميع القوانين التي تفرضها عليها أمها أو حتى جهاز إدارة المطار، وعلت أنغام موسيقى راقصة؛ تقدم أيوب على إيقاعها من الطفلة وبلل وجهها بالماء ففرت منه ضاحكة، وعدا خلفها ولحقها في ممرات صالة المطار التي تحولت فجأة إلى غابة والطائرات إلى فراشات، وعندما مسح الماء عن عينيه تلاشى كل شيء وعادت إلى أذنه أصوات المسافرين الذين يتجولون جيئة وذهاباً، وغزت أنفه رائحة الأطعمة الجاهزة التي لا تصلح، لولا أضواء دعاياتها، لتكون غذاء لفأر جائع، وشعر من جديد بنوبة غثيان كانت تلازمه طوال رحلته.

- هل تأخرت عليك؟ سألت بينما كان النادل يعدل لها الكرسي كي تجلس.

تعطل لسان أيوب لوهلة، وبقي أسير صمت ولد ونشأ وهرم في غضون دقائق. لاحظت ماري لوس ارتباك أيوب، وحاولت إعادته إلى حالته الطبيعية فتابعت حديثها كما لو أنها سمعت سلفاً إجابته:

- الدقة في المواعيد مقدسة بالنسبة إليّ.

- بالطبع، بالطبع... أردف أيوب كمن استيقظ توّاً من غيبوبة وأضاف:

- هذا يعكس احترامك لنفسك.

- ليس بالضرورة، إنه على الأرجح بسبب احترامي لعملي.

- حكت لي روسا عنك كثيراً لكني لم أتوقع أن أراك بمثل هذا الجمال.

- شكراً على المجاملة. وكيف حالها.

- سعيدة بعملها وتقود حياتها على طريقتها.

- يضحكني من يدعي أنه يقود حياته على طريقته.

- يبدو أنك لا تؤمنين بحرية المرء الشخصية!

- وهل تعتقد أصلاً أنك حر؟!

- ربما أو أقلّه أحاول أن أقنع نفسي بأنني حر.

- قد تصبح في أحسن أحوالك شيئاً أو رقماً لكن أن تتحدث عن الحرية بهذا الشكل الخرافي فأنت مخطئ.

- لكن....

- قل لي هل أخبرت روسا بلقائنا. سألت ماري لوس مقاطعة.

- لم أخبرها بشيء. أجاب أيوب بارتباك وتابع:

- حتى إنني ودعتها وغادرت المتجر ولم تشك بأنني سأقابلك.

- أنت تكذب.

- صدقيني لم أخبرها بشيء.

- لقد تشاجرتَ معها وغادرتْ هي المتجر ساخطةً منك وحانقة.

- وكيف عرفت؟ هل كنت تراقبينني؟

- أراقبك منذ وطئت رجلك منزل السيد وجيه.

- وهل تعرفين عمي أيضاً؟

- أنا الذي أعرفه.

- من أنت؟ ماذا تريدين مني؟ صاح أيوب وأخذ يضرب الطاولة بيديه، ثم تابع: اعلمي جيداً أن لا أحد على هذه الأرض يستطيع ابتزازي ولن تقدري على توظيف علاقتي القصيرة مع شقيقتك من أجل تحقيق مصالحك الخاصة. خسارة...أجل خسارة بأن يختبيء خلف هذا الجمال الرائع والهائل شيطان قبيح.... أعرف جيداً كيف تفكرين.... وإذا أردت التحدي أنا جاهز. قال أيوب مشدداً ثم نهض لينصرف لكنه تفاجأ برجل طويل القامة يقف أمامه دون أن ينبس بكلمة ويمنعه من المرور.

- هل تعتقدين بأنك ستخيفينني بحفنة رجال قذرين؟

- إجلس من فضلك. قالت ماري لوس بنعومة وأشارت إلى الرجل بأن ينصرف. ثم أردفت: مهما حاولت إظهار شجاعتك لن تستطيع الإفلات من خوفك.

- أنا لا أخاف من أحد.

- لكنك تخاف أن تخسر حبك.

- .....

- الخوف في كل مكان، في كل زاوية يا أيوب، نخاف من الصمت ونخاف من الإفصاح، نخاف من الهدوء ونخاف من الضجة، نخاف من حاضرنا ونخاف على مستقبلنا، نخاف من اللغة حين تخاف اللغة من الكلمة.

- ماذا تريدين مني؟ لماذا وقع اختيارك عليّ؟ هل لأنني صديق شقيقتك؟ لماذا تراقبينني؟ من أنت؟

- أنا نفسي لم أعد أعرف من أنا. يا ليتني لم أقدم على مساعدة روسا.

- روسا سعيدة في حياتها وعملها ولا تحتاج إلى مساعدتك.

- ويا ليتني لم أتعرف عليك.

- لكن ماذا فعلت؟ وما الضرر الذي سببته لك؟

- وقع في غرامي رجل وسيم وطموح في الأربعين من عمره، ومنذ بداية علاقتنا دعاني إلى ولوج عالمه الساحر، عالم الأعمال التجارية والمال، وذات يوم قدم لي ورقة يانصيب، قلت له: أنا أؤمن بالعمل وليس بالحظ، فأجابني: وأنا أؤمن بالعمل وليس بالحظ. ربحت الجائزة الكبرى وفتحت حساباً باسمي في البنك وأدركت بعد فترة وجيزة أنه قد اشترى مسبقاً الورقة الرابحة وأهداني إياها لأساعده فيما بعد في عمليات تبييض أمواله.

- وما علاقتي بالموضوع؟ أرجوك قولي ماذا تريدين مني؟ صاح أيوب.

- مر الوقت وعرفني على السيد وجيه في حفلة خاصة، وعلمت أنه سيفتتح متجره الجديد، ولما جاءت روسا إلى العاصمة للبحث عن عمل قمت من غير علمها وعن طريق أحد الرجال الذين يعملون لحسابي بتوظيفها في متجر السيد وجيه دون أن تشك للحظة بأنني كنت أقف وراء كل ذلك.

- ولماذا قمت بذلك إذا كنت لا ترغبين بلقائها؟

- لأنه من الأفضل أن أبقى بعيدة عنها وتبقى هي تحت حمايتي!

- تحمين روسا؟ أنت التي بحاجة إلى حماية وليست هي!

- جميعنا نحتاج إلى حماية.الحماية من وهمنا ومن وعينا الفكري الكاذب، نحتاج الحماية من جبروتنا ومن انتقامنا ومن كرهنا ومن غرورنا.

- أنت جميلة فلماذا لا ترين غير القبح؟.

- لأني أرفض رؤية ظلي أمامي كأشخاص أفلاطون في الكهف.

- لا أفهم قصدك؟

- إن الأشخاص المقيدين داخل كهف منذ طفولتهم والذين لا يستطيعون تحريك رؤوسهم يرون ظلالهم فقط على الجدار الذي أمامهم عندما يضاء من خلفهم، ويعتقدون أن ما يرونه هو الحقيقة حتى إذا سمعوا أصواتاً يظنون أنها صادرة عن تلك الظلال.

- هل تريدين إقناعي أنك بسلوكك هذا، وبالفوضى التي تحكم حياتك تختلفين عن أولئك الأشخاص؟

- أنا لم أعد أرى ظلّي أمامي بل صرت أرى اليوم أنه لن يبقى على الأرض أية ذكريات لماض كان الإنسان يعيشه، وأن لا أحد سوف يلاقي بعد الوطن الذي يبحث عنه. قوة خفية وغامضة تدعونا كل لحظة إلى عشاء سري، وعند الصباح يقتلون الإله ونصير سبايا. قالت ماري لوس ثم سألت أيوب؟

- هل تعرف من هو السيد وجيه؟

- ما هذا السؤال؟! طبعاً أعرفه.

التفتت ماري لوس إلى حارسها الشخصي الذي كان يجلس إلى طاولة بالقرب منها، وطلبت إليه إحضار حقيبتها، بينما بقي أيوب يحاول أن ينفض عن نفسه الشك والحيرة. أخرجت ماري لوس مصنفاً وقدمته إلى أيوب وقالت وهي تعطي حقيبتها إلى حارسها الشخصي الذي حملها وعاد إلى طاولته:

- هذه الأوراق كفيلة بأن تعطيك فكرة واسعة عن نوعية التجارة التي يقوم بها السيد وجيه، اقرأها بهدوء، فقد حان الوقت لأخبرك عن هدف لقائي بك.

- قولي أسمعك! قال أيوب وهو يتصفح الأوراق.

- ارتفعت قبل سنوات مستويات العنف بين عصابات المخدرات بهدف السيطرة على الطرق والممرات الحساسة لعمليات التهريب، وبرز اسم السيد وجيه كزعيم لا يقهر بعد أن جرف الصراع أهم قياديي تلك العصابات، وراح نجمه يسطع أكثر عندما تلاقت مصالحه مع مصالح بعض المهاجرين العرب في كولومبيا والبرازيل والباراغواي المنتمين إلى خلايا إرهابية وإلى فصائل إسلامية متطرفة تقوم بعمليات تبييض العملة لتقديم الدعم المادي لقيادييها في البلاد العربية وتعمل على بناء المساجد وشراء الأراضي في دول أمريكا اللاتينية لاستقطاب أكبر عدد من الجاليات العربية أو حتى من شعوب المنطقة، وبدأ التعاقد ودخلت مبيعات الأسلحة والمخدرات حيز التنفيذ، وفي الوقت الذي كانت عينا السيد وجيه متوجهتين نحو الشرق الأوسط وآسيا وأفريقيا كانت أعمال زعماء العصابات الأخرى مركزة على سوق الولايات المتحدة وأمريكا الوسطى وأوروبا، وكأن قالب الحلوى هذا تم تقسيمه بإنصاف؛ تخيل يا أيوب أن أحد قادة العصابات في غواتيمالا يملك ثروة تزيد عن إجمالي الناتج المحلي لغواتيمالا، فكم يملك عمك يا ترى ؟

- سيقتلونها.... سيقتلونها: صرخ أيوب كالمجنون وقذف بالأوراق في الهواء وخرج يبحث عن سيارة أجرة تقله بسرعة إلى المنزل، وشاهد المكان قد تحول إلى قطع من رخام، وراحت الشمس تذوب كشمعة صفراء وتغير شكل الطرقات والساحات، وغدا الناس يشبهون دوائر رمادية معلقة بين الأرض والسماء وبدأ يركض ويركض يخشى أحياناً الوصول، وأحياناً يخشى اللاوصول بينما ظل صوت ماري لوس يهدر كصدى بعيد لا يتوقف:

- قبل شهرين بدأت خريطة المصالح تأخذ شكلاً مختلفاً، فقد ظهر على الساحة لاعب جديد وهو الدولة التي تحت شعار مكافحة الاتجار بالمخدرات سوف تصبح دولة مخدرات تغذي بشكل قانوني سوقها الداخلي وانتشرت هذه الحمى إلى جميع الدول، وبالتحديد الدول المنتجة التي تقوم حكوماتها في الوقت الحاضر بمناقشات مستمرة مع الأحزاب السياسية المختلفة لإقامة إصلاحات جديدة في قوانين المخدرات بهدف إضفاء الشرعية على الاستهلاك الشخصي، ومن أجل تحقيق هدفها قامت بعض الحكومات بتفكيك الشبكات الإجرامية المنظمة لتنفرد وحدها بالسوق، ورغم ذلك ظلت وستبقى بحاجة لأطراف تساعدها.

ونشأ صراع جديد بين السيد وجيه الذي أصبح ذراع الحكومة اليمنى وبعض قياديي عصابات المخدرات والأسلحة، وعلمت قبل وقت قصير أن أحدهم يخطط لقتل أو اختطاف ابنته كنوع من

الانتقام الشخصي.

مسحت ماري لوس بطرف منديل كانت تمسكه في يدها دمعة سقطت من عينها خلسةً، وأرادت على عجلة أن تنهي حديثها وتمضي في سبيلها بعد أن حققت غرضها من لقائه إلا أنها لم تقدر ووجدت نفسها، ولأول مرة، تكشف الستار عن حقيقة قلبها الذي لا يزال منذ زمن بعيد يعيش تائهاً وغريباً وقالت:

- كنت أتمنى لو أنك أصبحت زوج شقيقتي، لقد أصابني حنق عندما افترقتما لكنني استوعبت على الفور أن القرار يعود دائماً إلى قلب الشخص، لا تستغرب ولا تنظر إلي باستهزاء، أنا أيضاً لدي قلب كان يتورد عندما كنت أراك مع ناديا. جميعنا نحتاج إلى حماية قلوبنا يا أيوب، حمايتها من وهمنا ومن وعينا الفكري الكاذب ومن جبروتنا ومن انتقامنا ومن كرهنا ومن غرورنا.

عندما دخل أيوب المنزل كان صراخه يسبقه، حاول الاتصال للمرة الألف لكن هاتف ناديا الخليوي بقي مقفلاً، سأل عن جهاد فأخبرته السيدة عائدة أنه خرج توّاً لشراء علبة سجائر. لم يعرف ماذا يفعل في تلك اللحظة، وظل واقفاً بجانب الباب الرئيسي كأن رجليه أصابهما الشلل وأخذ عن غير وعي يضرب رأسه بالجدار.

اقتربت السيدة عائدة منه حتى صارت لصقه وسألت بصوت خافت وهادئ:

- ما بك يا أيوب ماذا أصابك؟

- لا شيء.. لا شيء..صدقيني.. أشعر فقط بالرغبة في البكاء والصراخ.

- حاولت طويلاً إقناع نفسي أن ما ينطق به قلبي مجرد عمل من أعمال الشيطان، كانت ضحكاتها المفعمة بالغبطة تصور لي أن البراءة أقوى من الموت.

- عمّا تتحدثين سيدة عائدة؟ سأل أيوب وهو يمسح دموعه عن وجهه محاولاً أن لا يثير أي نوع من الشكوك: تذكرت اليوم والدي ومدينتي وغلبني الحنين.

- هل أنا أضعف من أن أحميها؟ أجل أنا أضعف من أن أحميها. أردفت السيدة عائدة بهدوء وسكينة ثم أضافت: ابق واقفاً في مكانك يا عزيزي سأحضر غرضاً خبأته منذ فترة والآن حان وقت استخدامه، ومضت تجر جسدها ببطء وتثاقل.

لم يستطع أيوب كتم صراخه وعاد يضرب الجدار برأسه وبقبضة يده، وجاءت السيدة عائدة بغتة ووقفت أمامه ترسم على خدها ابتسامةً خجلة وقالت:

- الضوء الذكي هو الذي يعرف كيف يأكل الظل. أسمع صوتها.... أجل أسمع صوتها.. إنها تناديني لأرافقها... أعرف أنها تشتاق إلي.

ورفعت المسدس الذي حملته بيدها وأطلقت رصاصة على رأسها فسقطت على الأرض جثة هامدة.

صرخ أيوب من شدة الهول وهوى عليها بصدره ووضع رأسها المضرج بالدم بين ذراعيه دون أن يلفظ بكلمة، وسرعان ما تلاشى دوي الرصاصة كأعمدة دخان، ولف المكان صمت مطبق امتزج مع أنين أيوب وصوت التلفاز الموجود في الصالة.

حين عاد جهاد إلى المنزل وفتح الباب الرئيسي غاصت قدماه في بركة من الدماء وصرخ :
أيوب... أيوب.....

- قم يا أيوب يكفيك نوماً.

نهض أيوب مذعوراً من فراشه وحضن أمه بقوة وهو يقول:

- اشتقت إليك...اشتقت إليك.

- طبعاً! في نومك فقط تشتاق إلي .

- يا إلهي كان كابوساً فظيعاً، حلمت أنك فارقت الحياة، وأن والدي تزوج من جديد.

- تزوج؟ ومن تلك المرأة المغفلة التي ستقبل به!.

- وحلمت أن..

- وماذا حلمت بعد؟! قتلتني وزوّجت والدك ألا يكفي هذا. قاطعته والدته ثم تابعت: أسرع وغير ثياب نومك، جهاد ينتظرك في الصالة.

- ولماذا لم يدخل إلى غرفتي مباشرةً.

- إنه يشرب القهوة مع والدك ويرافقه رجل لم أره من قبل، أظن أنه من العاصمة اسمه جمال.

- من؟ جمال؟ الأستاذ جمال؟

- أجل يا بني! هل تعرفه؟

- أجاب أيوب بدهشة: أعتقد أني أعرفه.

...سافـر أيـوب وكان الخـوف والقلق يحلقان فـوق رأسه كغيوم رمادية، لكنها تبدّدت حين شاهد العاصمة لأول مرة: عذراء نائمة يحرسها إخوتها العمالقة من كل الجهات، فوقع بحبهـا وتمنـى أن تستيقـظ لحظة ليـرى لون عينيهـا. سأل النـاس عن اسمهـا فأجابوا: تاريـخ. وسألهم عـن أحلامها فأجابوا: فتش عنها فـي قلبك. فجأة لفحه هواء بارد محمّل برائحـة الياسمين والخبز والعشـب الأخضر فابتسم وتبللت عيناه من غير أن يشعر بالدموع.

هانـي سلمـان القنطـار كاتـب سـوري، يعيـش فـي الأرجنتيـن، ولد في العـام 1973، تنقل بين سورية ولبنان والهنـد وفنزويـلا وبلـدان أخـرى باحثاً عـن ذات لا تعرف الاستقـرار؛ حـط الرحـال فـي بيونـس إيريـس قبـل عـدة سنوات حيث يعمل فيها في المجال الصحفي، حاصل على بكالوريوس بأدب اللغـة الإنجليزية، ويتقـن الإسبانية، إلا أنـه يصر على الكتابة بلغتـه الأم التي يحاول أن يبقي على بساطة التعبير فيها.


ISBN 978-614-432-062-4